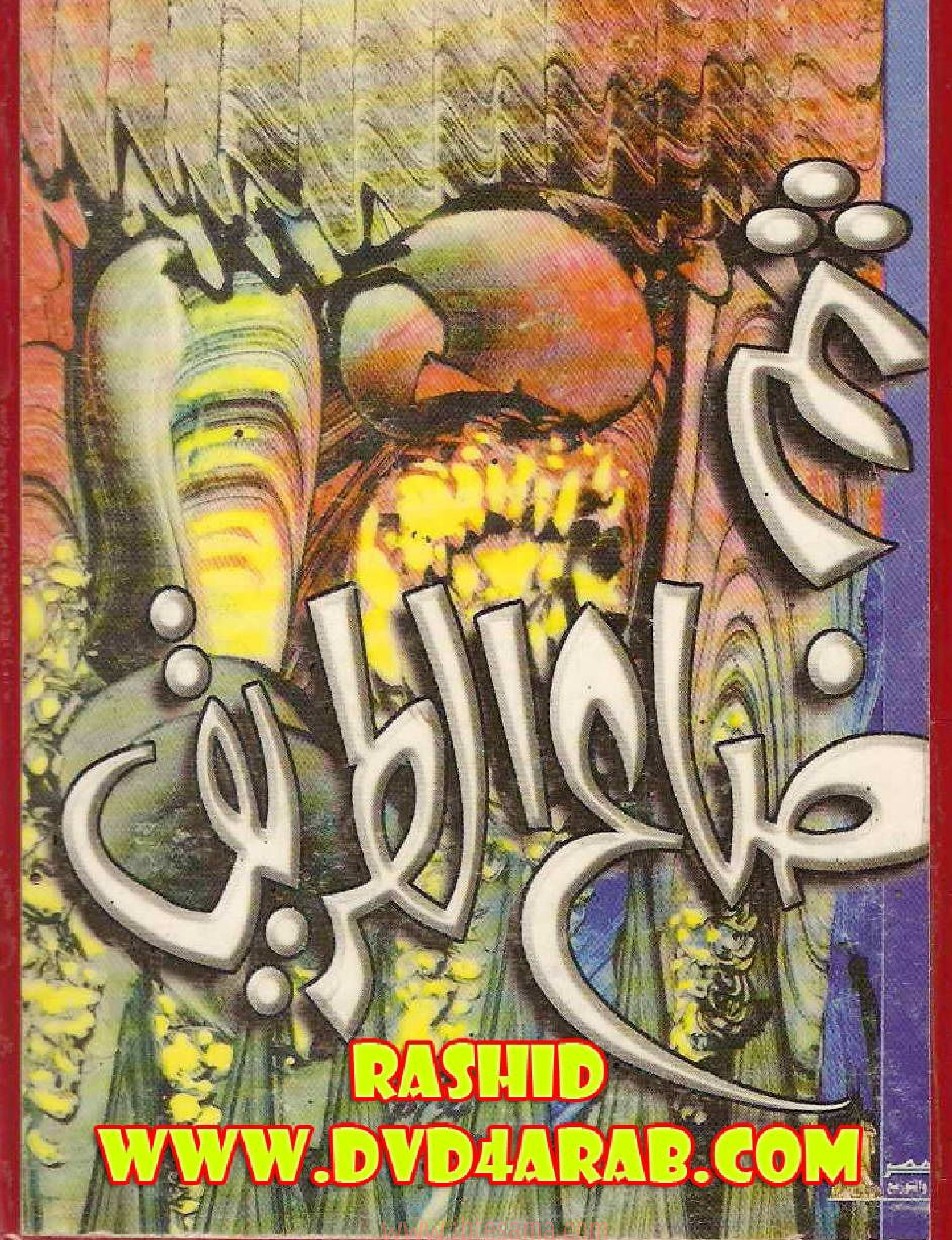
أنيس منصور



كلمة أولى..

لا تسأل طبيبا ولا عالما ولا باحثا . . ان كان حقا أنك لم تعد تشكو من صداع فى الرأس أو تشنج فى الامعاء أوثقل فى المعدة . . مادام هذا شعورك فكن سعيدا . . لا تسأل أحدا إن كنت تنهض من نومك بعد ساعة فتحس كأنك نمت أربعا وعشرين ساعة . . لا تحسد نفسك إن وجدت نورا قد فجر من جنبك ومن عينيك . . لا تسأل أحد أن وجدت أنك لا تمشى على الأرض وإنما فوقها . . لا تسأل أحدا ان كان ثوبك الأبيض ليس إلا ريشا تطير به . . إن كان إلا مظلة واقية هبطت من السماء إلى ما فوق الأرض . . لا تسل أحدا ان كنت لا تتعب من الجلوس على الرخام وتسجد على التراب بين عددٍ من الأحذية والشباشب ، فلا تشعر بتعب ولا تضيق برائحة ـ فذلك فضل الله عليك . . انك لا تتعب إذا أكلت وإذا شربت وإذا ركعت وإذا سجدت وإذا نمت وحتى إذا نسيت ان تفسح لرأسك مكانا بين الجزم ونسيت أن تنفض التراب عن جبهتك . . لا تحسد نفسك على هذه النعمة . . فأنت فى حالة من الاستشفاء . . من العلاج الروحى . . من الصفاء من النقاء من البهاء . . فهذا هو الهدف من طريقك الطويل ، والغاية من سعيك إلى الله ورسول الله . .

اسندت ظهرى إلى أحد الأعمدة ووجدتنى قد نمت نوماً عميقًا . كيف؟ ان شيئا من ذلك أو بعض ذلك لم يحدث لى من

قبل . . وظننت ان هذه مرة لا تعود . . وفى اليوم التالى جئت وأسندت ظهرى إلى الرخام ومددت ساقى على الرخام ووضعت يدى على الرخام وجاء النوم ثوبا من البلاستيك الحريرى يمنع عنى جفاف الأرض وبرودة الجو وكأننى جنين فى بطن أم . . وكأننى ولدت من جديد . . خاليا طاهرا مطهرا . . كيف؟ لا أسال ولكنها الراحة النفسية والسعادة العقلية والميلاد الجديد . . كيف؟ لا يهمنى ان أعرف . ولكن هذا ما حدث . . كيف تم التشخيص والعلاج فى لحظة واحدة؟ كيف تسرب كل ألم كل وجع كل قلق كل خوف . . كيف الشعور بالأمان والإيمان . . كيف أحسست بأن عفوا قد صدر كيف سمعت هذا الحكم القاطع النهائى يتردد فى خلاياى . . كيف أننى محمول على اكتاف ملايين ملايين الخلايا تتظاهر وتهتف : مبروك يا حاج . . براءة! .

أنيس منصور

كلام من سم !

الشحاذون ضاقت بهم الأرصفة الضيقة ، ولا مكان لهم فى الشوارع بعد ان ازدحمت بالسيارات والعربات . . ولذلك هاجروا بملابس الإحرام إلى السعودية والمسجد الحرام ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام . .

وخرجت من تحت ملابس الإحرام الأيدى المدربة تتسول وتسرق وهكذا أصبحت الظاهرة السيئة عارا مصريا . وتعالت صرخات المصريين وغيرهم يتساءلون عن (فائض) التسول الذى أصبحت مصر تصدره إلى البلادالأخرى إلى جانب المدرسين والأطباء والمهندسين والعمال!

ويجب ألا نضع رؤوسنا فى الأوراق أو فى الرمال .

ولذلك لم أغضب مما كتبته صحيفة ديلى ميل فى ٢٥ إبريل الماضى بمناسبة زيارة الأميرة الحزينة ديانا إلى مصر . . قالت الصحيفة إن الأهرامات العظيمة (رهينة) فى أيدى الشحاذين الذين يهاجمون السياح حتى أصبح من الصعب على أى سائح أن يرى أى شئ أو يلتقط صورة لأى أثر . . ثم أنهم يطالبونك بالفلوس ومن المستحيل أن تتمكن لحظة واحدة من النظر إلى الجبال الثلاثة الكبرى التى هى من صنع الإنسان .

وتقول الصحيفة : إن الأميرة ديانا التى تزور مصر بدعوة من السيدة سوزان مبارك حين تقوم برحلة اضطرارية إلى الأهرامات . سوف تتولى السلطات المصرية حمايتها من الشحاذين .

وتتوجه الصحيفة إلى السلطات المصرية قائلة : إذا لم تنقذوا الأهرامات من أيدى الشحاذين . فسوف تقتلون أروع وأعظم ما تبقى من حضارة عريقة ولن يجىء إلى مصر سائح واحد بعد ذلك . . وسوف تحل بالمصريين لعنة توت عنخ أمون!

شكرا للصحيفة البريطانية على كلامها الذى له مذاق السم . . أما الذى لاتعلمه الصحيفة البريطانية فهو إننا اعتدنا على السم فلم يعد يترك فينا أى أثر . . لا الكلام ولا السهام ولا الهموم ولا السموم . . ولكننا نحترم كل ما هو مستورد : الكلام والطعام . . وألف كلمة (صنعت فى مصر) أقل خطرا من كلمة واحدة صنعت فى بريطانيا ـ اللهم أمين!



هل من الممكن أن يصبح أحد أو إحدى الراقصات فى فرقة رضا رئيسا لمجلس الشعب أو الشورى؟!

فى بريطانيا ممكن . وقد أصبحت إحدى الراقصات رئيسة لمجلس العموم مع عظيم الاحترام لها ، وهى من حزب العمال المعارض . فالسيدة بتى بوثرويد (٦٢ سنة) من أبناء الفقراء . أبوها كان عاملا من عمال النسيج . وهى كانت تعمل راقصة فى فرقة تيلر الشهيرة ودرست فى كلية التجارة . ثم صارت عضوة فى مجلس العموم عن العمال . وكانت شخصيتها قوية ولسانها طويلا ولها مواقف معارضة لحزبها ورئيس الحزب .

ثم عملت نائبة لرئيس مجلس العموم لخمس سنوات . وشهد لها العمال والمحافظون بأنها سيدة محترمة لطيفة . وصديقة للجميع . . وعندما تقدم بها العمال لتنافس أحد الوزراء المحافظين فى رئاسة المجلس ، اتخذت موقعا رفيعا . فرفضت أن تعطى صوتها لنفسها أو لخصمها . . وإنما امتنعت عن التصويت!

أما أهم صفاتها فهى أنها مرحة ومحترمة . وكالسيف حازمة وكان من تقاليد مجلس العموم أن يقولوا لرئيس المجلس : مستر سبيكر . . ولكنها طلبت أن يقولوا لها : يامدام . .

ولن تضع على رأسها الباروكة التقليدية . . فعينها على التليفزيون الذى سوف يلتقط صورا لفستانها وتسريحتها ثم وهى تدق المنصة وتقول : هدوء . . نظام ادخل فى الموضوع!

ومجلس العموم البريطانى يضم ٦٥١ عضوا من بينهم ١٣٧ دخلوه لأول مرة وفى المجلس أكبر عدد من النساء فى كل تاريخه : ستون عضوا .

وهناك أمل كبير فى أن تقوم الرئيسة الجديدة بإدخال تعديلات كثيرة على حقوق أعضاء مجلس العموم ـ النساء خصوصا فليست لهن قاعة خاصة . . ثم إنهن يطالبن بعدم عقد جلسات مسائية متأخرة فلهن أطفال وعليهن التزامات عائلية .

أما السيدة بتى بوثرويد التى هى أول رئيسة لمجلس العموم البريطانى منذ إنشائه سنة ١٢٥٨ ، فتتقاضى مرتبا سنويا قدره ٦٥ ألف جنيه ، وسوف تكون لها شقة أنيقة . ومن أشهر عباراتها اللاذعة فى مواجهة الرجال الذين يبرمون شواربهم ويغلظون أصواتهم اعتزازا برجولتهم تقول : ولكنك ابن امرأة!

وقد نشرت الصحف الصور المعلقة على جدران شقتها : صورها وهى راقصة تقول رئيسة مجلس العموم ولكن عملى فى هذه الفرقة علمنى : أن أكون جادة منضبطة ومنتظمة ومحبة للفن وأكثر إحساسا بهموم الناس .

العمل إلى الأمل!

الرئيس حسنى مبارك فى كل خطاباته إلى الشعب يؤكد تمسكه بالديموقراطية والسلام الاجتماعى والسلام فى الشرق الأوسط ويدعو إلى تنظيم النسل وإلى العمل . . مزيد من العمل . . لكى يتحقق أى أمل ـ ولا توجد فلسفة أوضح وأبسط من التى سار عليها الرئيس مبارك لكى يحقق أى أمل فى الاستقرار والرخاء بعد ذلك . .

وحولنا الدنيا تتبدل وتتغير وتنتقل من اليسار إلى اليمين . . إلى الوسط . . وأصعب الأمور الوسط . .

فالاتحاد السوفيتى يعانى من الجوع والعطش والبرد والطوابير والخراب ويمد يده لمن يساوى ولمن لا يساوى . . ولكن لن يطول ذلك . . فلديه الموارد الطبيعية والانسانية وقد تقلصت نفقاته على الأحزاب الشيوعية والنصابين فى كل مكان . والشعب الروسى شعب عظيم قد عانى ويلات وعذابا أبشع من ذلك فى الحرب العالمية الثانية خرج منها قوة عظمى تنطلق من الأرض إلى الكواكب الأخرى . .

والدول الشيوعية تستدرك ما فاتها ـ وما فاتها كثير جدا .

أما نموذج المانيا واليابان فهو أرفع مستوى يبلغه المهزوم المقهور المكروه ، اعتمادا على عبقرية الشعب إلا إذا كان من رأينا ان لا

خوف علينا من زيادة السكان ، لأننا سوف نواجه الزيادة بالعمل الطويل ، واتقان ما نعمله منافسين دولا أخرى كثيرة . . وإلا إذا كان من رأينا ان نقلل عدد أيام الاجازات ونضاعف ساعات العمل ونتوقف عن صرف المرتبات والأجور لكبار موظفى الدولة ولسنوات كما تفعل المانيا الآن . . وإلا إذا كان من رأينا ان نكتفى ذاتيا بما ننتجه من طعام وشراب وملابس . .

إذا كان هذا رأينا فلا داعى لوقف الزيادة السكانية!

ولكن ليس هذا رأينا ولا هو فى نيتنا ولا استطعنا ذلك . إذن ليس أمامنا إلا الطريق الذى ينادى به الرئيس مبارك منذ تولى الحكم فى مصر . والطريق أمامنا طويل فلا تزال الأرض الزراعية محتاجة إلى زراعة . . والأيدى محتاجة إلى عمل . . والعمل محتاج إلى الايدى المدربة القادرة على الابداع والتفوق .

والشرط الأساسى لكل ذلك : هو أن نؤمن بالعمل طريقا إلى الأمل بكامل حريتنا وفى سلام . .

أتعس الناس!

ان كان طريقك شارع الهرم فأنت من أكثر الناس تعاسة فى مصر ، فالشارع كما تعرف ـ ليس شارع ، وإنما هو ممر خانق ضيق مزدحم طالع نازل لا يثبت على شكل ، وقد بلغ عدد التغييرات التى لحقت بهذا الشارع أكثر من ١٧ تغييرا فى عشرين عاما ـ الذى تغير فى هذا الشارع هم المقاولون وعملاؤهم وعمولاتهم . . ففى وسط الشارع كان رصيف . . ثم شجر . . ثم ازيل الشجر وكان بلاط ملون وخزف . . ثم عاد إلى الشارع الشكل الذى كان له فى أوائل هذا القرن مع زيادة فى التلوث والضوضاء وعدد السيارات التى يقودها رجال الشرطة وتقف فى وسط الشارع ولا يهمها رجال المرور طبعا ولا المرور ولا القانون ولا المحافظ ولا المحافظة ولا أي أحد ولا أى شئ!

ولم يستطع أحد حتى الآن أن يوقف الأتوبيسات والميكروباسات عند موقف .

والحل؟ لا حل مادام أحد لا يحترم القانون . ومادامت الأجهزة المشرفة على هذا الشارع بالذات لا تخضع لجهة واحدة وإنما لعشرات الجهات والحل؟ لا حل إلا إذا احترم الناس القانون . وكيف يحترمون القانون؟ لن يحترموا القانون مادام القانون نفسه ليس محترما . ومادام القانون ضعيفا ، والقانون ضعيف لأن الرجل

الذى يحميه ضعيف جدا . وأنه هو الذى يحتاج إلى من يحترمه وإلى من يهمه . . هل اضرب أمثلة على ذلك ، لا داع فالأمثلة كثيرة . ومن أكبر الادلة على استحالة الاحترام والحماية ان تأتى برجال أمن يتقاضون مرتبا لا يكفيهم شايا وقهوة فى الشهر ثم تطلب إليهم أن يحموا الملايين من الناس أو من الفلوس . . فالفلوس هى التى تختار رجل الأمن . . فهذا الذى يتقاضاه رجل الأمن ولا يعجبه هو أقصى ما تستطيعه مصر من قدرة على شراء الخبرات والرجال والرجالات أيضا!

فكيف بالله عليك أن تطلب لرجال الأمن المركزى والأمن ان تكون لهم هيبة وأبهة واحترام رجال اسكتلانديارد . . هذه هى البداية الحقيقية التى لن تسمعها من أى رجل مسئول عن أمن هذا البلد وتنظيم الحياة . . والمرور فى شارع واحد مثل شارع الهرم!

الد.د.ت..

عندما اخترع العلماء مادة الـ «د د ت» سنة ١٩٤٦ للقضاء على الحشرات فى الملابس وفى الأثاث ، أحس الإنسان بأنه قد وضع يده على الوسيلة الوحيدة للقضاء على المضايقات التى تسببها الوف الحشرات فى البيت وفى الحقل!

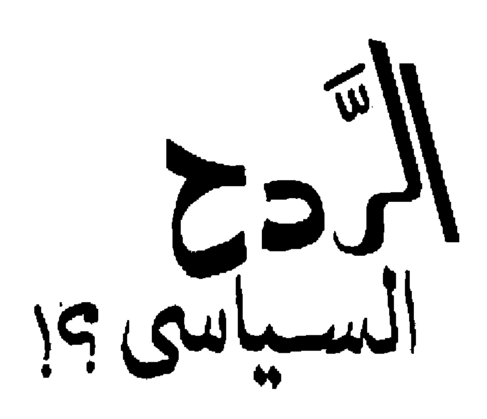
وليس بعيدا ما قالته العالمة الأمريكية راشيل كارسون التى نبهت إلى خطورة استخدام المبيدات الحشرية فى الحدائق وفى الحقول . وان هذه المبيدات قد قضت تماما على الحشرات النافعة وعلى الطيور الصديقة للفلاح . .

وذكرت في كتابها (الربيع الصامت) أن الربيع قد صمت تماما لأن الطيور المغردة قد ماتت بالمبيدات . وذكرت أن سلاح الطيران الأمريكى وجد حلا لملايين العصافير التى تعترض الطائرات وتدخل فى محركاتها أحيانا بأن راحت الطائرات تلقى نترات الفضة على الطيور فتذيب المواد الدهنية على ريشها فتتعرض للبرد فتموت .

والآن ثبت علميا فى جميع انحاء العالم أن المبيدات لم تقض على الحشرات . . وإنما الحشرات هى التى قضت على المبيدات . . فالمبيدات أصبحت عاجزة عن متابعة الحشرات فى تطورها من جيل إلى جيل . . بل إن الحشرات أثبتت قدرتها الفذة على المرونة والمقاومة وتطوير نفسها إلى كائنات جديدة تتغذى على المبيدات!!

وأمريكا كانت تفقد ثلث محصولها السنوى فى الحقل والحديقة بسبب الآفات الزراعية فلما استخدمت عشرات المبيدات ، فإنها تفقد ثلث محصولها السنوى أيضا أى بعد أن تكون قد أنفقت سبعة آلاف مليون دولار على المبيدات الحشرية . .

والحل هو أن نعود إلى التخفيف من المبيدات وإعطاء الطيور والحشرات النافعة فرصة كى تظهر من جديد مع زراعة الأعشاب التى تساعد على استضافة الحشرات فتصيدها الطيور . أى العودة إلى ما قبل عصر الـ «د .د .ت» وهذه العودة مؤقتة حتى نفكر فى حلول جديدة ، وحتى تتوقف الحشرات من تجديد نفسها ! .



إن الانتخابات الأمريكية قد اخترعت أسلوبا جديدا فى الدعاية للرئيس هو : الردح الرياسى!

أن تقوم زوجة الرئيس بفرش الملاية وتردح لزوجة خصم زوجها . . ففى الحملة الانتخابية الأمريكية نشرت الصحف إن المرشح كلينتون الحليوة ذا الصوت الاجش كانت له غراميات مع مطربة كباريه البنت حلوة لاشك ، وزوجة كلينتون هى أشهر محاميات أمريكا وقد بلعت هذه التهمة لأن عينيها على البيت الابيض . وأن تكون السيدة الأولى وليست المحامية رقم عشرة وسط مليونين من المحامين . . ودافعت عن زوجها . وانكشفت اللعبة فإذا بالفتاة كانت تعرفه ، ولم تكن عشيقة له عشرين عاما كما يقال . ولكن انتشرت القصة التى تقاضت عنها الفتاة مبلغا من المال . . وعندما ظهرت المطربة جنيفر على الشاشة لاحظ الناس أنها جاهلة وأنها بلدى جدا ، وليس فيها ما يغرى محافظا عن آماله فى ان يكون رئيسا لأمريكا . انتهى الموضوع!

وفجأة أعلنت زوجة كلينتون أن زوجها ليس وحده الذى عينه زائغة . . فالرئيس بوش أيضا . كان على علاقة غرامية بسكرتيرته التى اسمها جنيفر أيضا ولعشرين عاما . . وأن السيدة زوجته بربارة كانت نائمة فى العسل ، أو كانت تعلم وتبتلع ريقها فى صمت!

ولم تطق بربارة بوش السكوت على هذه الاهانة . وظهر الردح الرياسى الذى هو على أصله وهى الجنازة التى استعدت لها الصحف فنشروا لها انها قالت : وانت طبعا تريدين أن تستدرجينا إلى الوحل الذى سقطت فيه انت وزوجك . . أين انت من الشرفاء . . انت يا . . (كلمة لا تقال) . .

ثم اتصلت السيدة الأولى بالمؤسسة التى تعمل بها زوجة كلينتون وقالت لها : إن لنا حسابا بعد الانتخابات ولن أتخلى عنه . . ولن يشفى غليلى سقوط زوجها إلى ما تحت الوحل الذى استحقه بجدارة لأنه اختار مثل هذه الشرشوحة!

أما زوجة كلينتون فقد قررت ان تفتح جميع ملفات الرئيس لتنشرها غسيلا قذرا ـ هى التى تقول ـ حتى لا يدخل البيت الابيض أبدا!

الحرية عبء!

الفيلسوف الوجودى سارتر هو الذى كشف لنا عن مصاعب الحرية فى قصة صغيرة : افرض ان أبنك يريد شيئا ولكنه لا يفصح عنه فتقول له : ماذا تريد؟ فلا يرد وتعود تسأله : شيكولاته فيقول : لا أيس كريم؟ لا تخرج .. تنزل .. تلعب هل اشترى لك لعبة هل تأخذ انت فلوس اللعبة وتشترى ما يعجبك؟ فيقول لك : لا .. لا ..

وعندما يغلب حمارك تقول خلاص .. يا أخى .. أنت حر فيبكى الطفل فما الذى ابكاه؟ ابكاه أنك أعطيته حرية الاختيار وحرية القرار وأن يكون مسئولا وحده عن الذى سوف يشتريه!

وكذلك يسألنى بعض الناس ما الذى تقترح أن أقرأه فى إجازة العيد فارد أى حاجة تبسطك .

- مثل ماذا؟

يا أخى أى شئ أى نوع من أنواع الكتب والموضوعات التاريخية العلمية ولو حتى القصص البوليسية المهم أن تجد متعة فى هذا الذى تقرؤه؟

- مثل ماذا؟

- يا سيدى أى شىء .

ويكون الرد : يا أخى انت تغيظ أنت لا تعطى جوابا مريحا؟ فما الذى اغاظهم ولم يرحهم ، أغاظهم أننى قلت لكل واحد أنت حر أختر لنفسك ما تشاء ما يمتعك ما يبسطك ما يجعلك تستغرق فى لذة القراءة والمتابعة فالذى أغضبهم أننى لم اختر كتابا محددا أو موضوعا محددا أو كاتبا معينا وإنما فتحت بابا واسعا على مكتبة ضخمة وقلت لكل واحد : اغترف وأملأ يدك وعينيك وعقلك أمامك بوفيه مفتوح .

ولكن هذا هو الذى لا يريح لأن الذى يسألك لا يريد أن يبذل جهدا عقليا فى الاختيار يريد أن يعتمد عليك أنت فأنت الذى تمد يدك وأنت الذى تختار ويكون له هو الحق بعد ذلك فى ان يقول : يا أخى الكتاب الذى اقترحته أنت كان بايخا وسخيفا وأنت أفسدت أجازتى ولكنه لو كان هو الذى اختار الكتاب فإنه لا يلوم إلا نفسه وهو لا يريد أن يلومها ولذلك كانت الحرية عبئا عليه!

جنون الكــرة!

علماء النفس الانجليز مشغولون بدراسة هذا السلوك الشاذ لجمهور الكرة البريطانى فهم فى بلادهم ليسوا كذلك ولكن لايكاد المتفرجون البريطانيون يخرجون من الجزيرة البريطانية حتى يخرجوا على كل الأداب والتقاليد وقد عاقبت بريطانيا الاندية الرياضية فحرمتها من الاشتراك فى المباريات وحددت عدد المتفرجين على المباريات خارج بريطانيا ثم وضعت الكاميرات على مداخل الملاعب ورصدت حركاتهم وأبلغت البوليس الدولى فى كل مكان بمطاردة مثيرة الشغب الانجليز ومنعت بيع الخمور فى الملاعب ودخول الخمور مع المتفرجين وكذلك فعلت إيطاليا فمنعت الخمور من كل المدن التى تقام عليها المباريات .

أذكر أن البوليس الإيطالى قال لى فى كاليارى أن لديهم عشرة آلاف إنجليزى ولكنهم مراقبون رقابة خانقة لحرياتهم وأنهم رحلوا بضع مئات منهم! حتى الألمان انتقلت إليهم عدوى الشغب .

تصور الألمان هذا الطراز المنضبط جدا من الناس الذى يحترم القانون ويقدس الطاعة أصبحوا مشاغبين ولكن أحدا لا يبلغ ما بلغه الانجليز وقد لاحظ علماء النفس ان الانجليز فى بلادهم أكثر انضباطا بل إن جرائم المجتمع الانجليزى أقل من أية دولة أوروبية أخرى وقد نشر العلماء فى معظم الصحف الكبرى بيانات وارقاما

ومقارنات حتى مخالفات الملاعب فى بريطانيا أقل من أية دولة أخرى .

إذن فهم ينقلبون تماما إذا خرجوا من بلادهم وعلماء النفس فى حيرة من أمر الانجليز .

فهم يتساءلون ما هذا الذى يجدونه خارج بريطانيا ولا يجدونه فى بلادهم ففى بريطانيا يستطيع أى إنجليزى ان يفعل ما يعجبه يأكل يشرب يصرخ يرقص ولكن يبدو أنهم اعتادوا على ذلك فهم يريدون شيئا آخر أكثر تمتعا وتنوعا وأكبر دليل على ذلك أن المرأة البريطانية هى الأخرى قد ساهمت فى هذا العنف ان العلماء البريطانيين لم يهتدوا إلى تفسير كامل شامل بعد!



إذا هجم كلب على أحد المشاة ثم مزق ملابسه فإلى من يشكو؟ وإذا عقره الكلب ـ لا قدر الله ـ واسال دمه ، فإلى من يذهب وما الذى يفعله حتى لا يصاب بمرض خبيث!

ومن بين الردود على مثل هذه الاسئلة : ان فى مصر كلابا ضالة كثيرة . كلابا بلا أصحاب . ولذلك فلا رعاية صحية أو تربوية لهذه الحيوانات الضالة . وإذا حدث ذلك فى أى بلد أوروبى فهناك إجراءات سريعة . وعن طريقها يمكن معرفة صاحب الكلب . وان كان قد اعطى حقنا وقائية أو تم تطعيمه . ومتى كان ذلك ، ويمكن محاكمة صاحب الكلب . . ويمكن حبس الكلب نفسه . .

هذا إذا كان الذى هاجمك كلب ولكن إذا فعل نفس الشئ طفل صغير . فما الذى تفعله؟ وأين القانون؟ وما هى حدوده؟

مثلا إذا كنت تركب سيارة وطاشت طوبة أو كرة وحطمت زجاج النظارة أو اصابت الوجه . ونزف الدم . ولم تتمكن من الهبوط من السيارة أو من القطار ، ونجا الطفل من غضبك أو من عقابك هذا إذا كان فى نيتك أن تعاقبه ولم يعترض احد من الناس قائلا : يا اخى أنت كبير وهو طفل . وأين عقلك من عقله؟

يا سيدى المسامح اسمه الكريم . لأن الناس على استعداد لمسامحته والعفو عنه وحتى إذا فكرت أنت فى معاقبته فأين تذهب .

سوف تمسك بالطفل . وتسأل عن والديه . ثم وجدت والديه ، واكتشفت بسرعة ان الطفل كان ارحم من والديه ومن كل الناس الذين التفوا حولك . كما يلتف الاطفال حول قرداتى .

وجاء واحد من رجال اشرطة وقال لك : تحب سعادتك تعمل له محضر فى قسم الشرطة .

تحت أمرك!

وأمام هذا الذوق من أمناء الشرطة واحساسك بأنك الوحيد فى مصر الذى قرر ان يعاقب طفلا على سوء أدبه . . وأنك سوف تدخل التاريخ على أنك إنسان تافه هايف كل ذلك سيجعلك تتراجع وتشكر الله على سلامتك . . وتنسى ان توارى وجهك من العار : لأنك اهملت فى حقك وحق هذا الطفل وحق هذا البلد كله . إذ كيف ينصلح حال الناس إذا لم يتمسكوا بالحق مهما كان الطريق إليه صعبا؟

إن طوبة فى يد طفل ليست شيئا هينا . لأن الحقيقة : أن الطفل هو الذى فى يد الطوبة!

الفرفشة في حياتنا!

الصين كانت اسبق دول العالم عندما طلبت من الأدباء والفنانين والشعراء ان يبحثوا عن عمل آخر فى الاجازة . . مثل جمع دودة القطن أو تربية الدواجن أو حرث الأرض أو قتل العصافير التى تأكل ملايين أرادب القمح!

ولم يكن ذلك عقابا لأصحاب القلم والفرشاة أن يمسكوا الفأس والمقشة ، وإنما مكافأة على ذلك . .

ولم تخترع الصين نظرية نفسية لهذا العمل اليدوى ، بديلا عن التفكير والتأمل ، وإنما ترويحا وترويضا للنفس الشاردة ان تنضبط ، وللاجنحة المنشورة ان تحط على أرض الواقع . . وبذلك تتوازى قوى الإنسان وتتعادل . ويستريح المفكر والفنان فى النهاية!

وفى الأسبوع الماضى طلعت مجلة «علم النفس» الأمريكية بدراسة عن النعمة التى لا تعرفها «ربة البيت» والتى حرم منها رب البيت . . أما الرجل الأمريكى والأوروبى . فهما يقاسمان الزوجة شغل البيت . . كما نرى فى كل المسلسلات الأمريكية والانجليزية ، يغسل ويطبخ ويكنس ويغير ملابس الأطفال المجلة تطالب الرجل بأن يتعمق ويستغرق فى هذه المساعدة ، لأنها العلاج الوحيد للتوتر النفسى والأرق والقلق . . أى أنها تطلب منه

ان يندمج فى هذا العمل وأن يؤديه بلذة . . وإلا فهو الخسران إذا لم يفعل ذلك وتطلب من ست البيت ان يكون الأداء واعيا وليس آليا ـ أى بلذة أيضا؟!

انظر إلى نساء الغجر إنهن أكثر إشراقا وحيوية واطول عمرا من الرجال . . لأنهن يعملن أما الرجال فنائمون ليلا ونهارا!

أما الأعزب فهو محروم من هذه المتعة لأنه يقوم بكل شئ بقرف وملل . وفى استطاعته أن يجعل كل حركاته فى البيت منضبطة . والمجلة تقترح بعض الموسيقى الايقاعية عند الغسل والكنس .

والمعنى : إن كان هذا تعبا فاجعله منتظما ، وان كانت هذه ضرورة ، فاجعلها متعة ـ فالعقل الذى ليست له يدان ورجلان قصير العمر!

والعامل ليس هو المثل الأعلى للأداء المريح ـ فهو يشقى لأن العمل واجب . ولأنه واجب فهو متعب وممل . ولذلك يجب أن نساعد أنفسنا بأن ندخل الفرفشة والمرح والتغيير فى حياتنا ـ إنها نصيحة عالم النفس فى التسعين من عمره ولا يزال يمشى على ساقيه!

خطوة للنسيان!

لم يعرف الحلفاء أياما أشد سوادا من ربيع وصيف ١٩٤٢ عندما تمكن روميل ثلعب الصحراء بعبقريته فى القيادة والمناورة والمرواغة ومدافع ٨٨ ملليمترا والتنسيق الفريد بين القوات البرية والمدرعات والطيران من سحق قوات الحلفاء وطردها حتى الاسكندرية فقام تشرشل بتغيير اثنين من قادة الجيوش هما أوخنلك ورتيشى وأتى بالكسندر ومونتجمرى . فى الحرب العالمية الثانية .

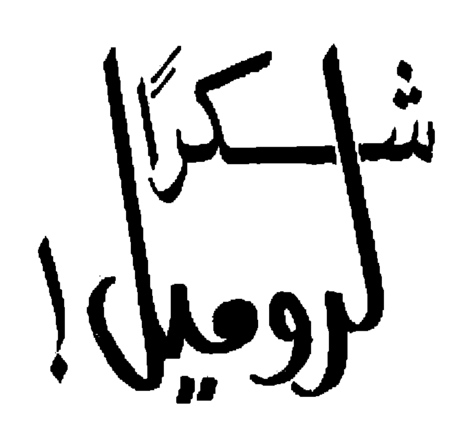
ففى ليلة ٣٠ أكتوبر وعند اكتمال البدر وتحت ساتر نيرانى كثيف اخترق الحلفاء حقول الألغام الألمانية فيما بين البحر الابيض ومنخفض القطارة . وتواجه الحلفاء والمحور . الحلفاء ١٥٠ ألف جندى ـ تسع فرق مشاة وسبعة الاى مدرعة و ١١١٤ دبابة شيرمان جديدة وسلاح متفوق جدا . . والالمان ٩٦ ألف جندى نصفهم إيطاليون ـ ثمانى مشاة واربع فرق مدرعة و ٦٠٠ دبابة قديمة أكثرها إيطالية كانوا يسمونها (القور ذاتية الحركة) .

ولم يكن روميل فى الجبهة ،وإنما كان مريضا فى ألمانيا ، وترك وراءه الجنرال اشتومه الذى مات بأزمة قلبية . فسارع روميل مريضا إلى العلمين يقيم احتفالا مهيبا للجنرال اشتومة أثناء المعركة . وقد أدرك روميل أن الحلفاء متفوقون فى العدد والعدة . . . أما هو فلا

عنده وقود ولا طعام ولا ذخيرة ومع ذلك فهتلر يأمره بالصمود ٤٨ ساعة . . ولكن قرر أن يقوم بأعظم انسحاب فى التاريخ وأن يهرب (بالفليق الافريقى) الألمانى ويترك الجبهة للإيطاليين و ٣٥ دبابة . . وقبل نزول القوات الأمريكية فى الجزائر بأربعة أيام .

وفى العلمين يلتقى كبار المسئولين من بريطانيا وألمانيا وفرنسا . . وفى مدينة درسون الالمانية (الشرقية) التى مسحها الطيران الانجليزى تلتقى ملكة بريطانيا ورئيس المانيا . . أما زوج الملكة فيصلى باللغة الالمانية على الضحايا الانجليز والألمان . . وإلى الصين سافر أمبراطور اليابان . . وكانت اليابان قد قتلت عشرين مليون صينى . . ولا أحد قد اعتذر عن الذى حدث . واكتفوا جميعا بأن قالوا أنها كانت أياما حزينة .

وهى خطوة لنسيان الذى كان وحرص علي ما هو كائن وأمل فيما سوف يكون أفضل للجميع .



تربطنى بثعلب الصحراء روميل صلة شخصية جدا ومن طرف واحد ـ طرفى أنا . . ففى سنة ١٩٥٠ جاءنى المرحوم كامل الشناوى سعيدا يحمل كتابا فى يده . . يقول لى : الأستاذ شميل يريدك أن تترجم هذا الكتاب!

الكتاب هو (مذكرات روميل) . والأستاذ شميل هو العضو المنتدب بجريدة الأهرام . أما سعادتى فهى المكافأة التى تقاضيتها عن ذلك وهى مائة وخمسون جنيها سافرت بها إلى أوروبا فى رحلة نظمتها شركة شل وفى طائرة بدائية كانوا يستخدمونها لنقل المواشى ما بين جيبوتى والحبشة . . وهذا المبلغ يعادل ١٨٠ جنيها استرلينيا فى ذلك الوقت . وقد كان كافيا جدا لكى أقضى شهرا فى اليونان وإيطاليا وسويسرا وفرنسا وبريطانيا والسويد وشراء بعض الكتب؟!

وكانت هذه أول مرة أسافر فيها إلى أوروبا . ومن الطائرة رأيت مدينة الاسكندرية التى لم أكن قد رأيتها قبل ذلك فأنا انتقلت من المنصورة إلى جامعة القاهرة ولم أبرحها إلى مكان آخر فى مصر . . بما فى ذلك مدينة دمياط التى تبعد عن المنصورة خمسين كيلو مترا ـ لم أرها حتى اليوم . .

ولا ادعى أننى فى هذه الرحلة استوعبت كل الاشياء الجديدة التى رأيتها . . فهى كثيرة وكانت مثل موجات البحر بعضها يذوب فى بعض . . ومثل ان تأكل عشرين نوعا من الحلوى ، فأنت فى النهاية لا تعرف كيف تميز بعضها عن بعض . . ولا تدرى أيها أحسن أو الذ أو التى لايزال طعمها على لسانك .

ولذلك تمنيت ان أعود إلى هذه البلاد مرة أخرى . . أراها على مهلى اثنتين اثنتين وقد حدث . فقد كلفنى الأستاذ عزيز ميرزا رئيس تحرير (الاهرام) بترجمة كتاب جديد هو (ثلاثة ضد روميل) . . وبعدها سافرت سعيدا إلى أوروبا . وكانت هذه الرحلة أمتع وكنت اسعد فقد رأيت وتأملت وكتبت وعايشت وتمنيت أن أعود . وقد عدت عشرات المرات ، ومازلت أتمنى ان أعود . فليس أروع من السفر . .

ولا أعرف كم ثلاثين مرة سافرت إلى ألمانيا وحدها . . فشكرا للفيلد مارشال ارفين روميل ثعلب الصحراء . .!

أغلقوه!

كنت قد رأيت متحف العلمين من سنتين وكتبت هنا أننى وجدت المتحف فضيحة بكل المعانى .

فالمتحف الحربى لاعظم معركة فى الصحراء عرفها الإنسان كان يضم قصاصات من أوراق الصحف . . ملطعة على الجدران . . ويضم أخطاء إملائية فى اللغة الانجليزية واخطاء نحوية فى اللغة العربية . . والمتحف بهذه الصورة الهزيلة نموذج لمتحف مدرسى فى إحدى قرى الريف الآمنة بأن أحدا لن يزورها . وإذا زارها فلن يرى الملصقات المهلهلة وإذا رآها فلن يفهمها ـ فضيحة وإهانة لانفسنا لا نستحقها!

هل يمكن ان يتصور أى إنسان أن هذا المتحف الهزيل يقع إلى جوار أكبر مقابر لقتلى معركة العلمين وأن عددا كبيرا من القادة والساسة يزورونه كل سنة ليجدوا أن جميع اسماء القادة مكتوبة خطأ . . روميل ـ مثلا ـ اسمه مكتوب خطأ تسع مرات . .

وأهم ما فى المتحف هو صورة طويلة عريضة للجاسوسة المصرية حكمت فهمى . الصورة أكبر من صور روميل ومونتجمرى إذا وضعت جنبا إلى جنب!! فما المعنى؟

وسمعت من الرئيس حسنى مبارك أنه أمر بإغلاق المتحف تمهيدا لإصلاحه وجعله لائقا بمعناه ولائقا بنا نحن أيضا .

وأخيرا جدا رأيت جانبا من هذا المتحف أثناء زيارة الرئيس مبارك والشيخ زايد آل نهيان . لقد حدث تغيير واضح فى مقتنيات المتحف الصغير . وظهرت صور لهتلر وآخرين . . صور على الحائط وهذا ما لا يحدث عادة فى أى متحف فى الدنيا . . وإنما الذى يحدث ان تتعلق لوحات فنية أو صور من الجو لأرض المعركة . . ولكن لا بأس . .

ولذلك أرى إعادة إغلاق المتحف مرة أخرى تمهيدا لأن نجعله أكبر وأكثر شمولا لاسلحة الدول التى شاركت فى المعركة . وذلك بأن نطلب من كل دولة أن تساهم بما لديها من أسلحة وذخيرة وأجهزة اتصال وملابس ومقتنيات خاصة للقادة ومذكرات . . ولا داعى للاستعجال فلا أحد يسأل أحدا عن عدد الأيام التى أقيم فيها المتحف . ولكن أن كان المتحف مفيدا . . والذى يهمنا هو أن يرقى إلى مستوى الحدث الجليل الذى تحولت بعده الحرب العالمية الثانية إلى هزيمة النازية والفاشية وازدهار الشيوعية لتنهار بعد أقل من خمسين عاما!

كلام من سوريا ..

(١)

قالها بمنتهى الصراحة والوضع : لا أمل فى الصلح مع العراق ولاذهاب إلى بغداد ، فالخلاف عميق شائك ومتعدد الاطراف . وهو الشئ الوحيد المؤكد الثابت بين دمشق وبغداد . انتهى .

يعنى لا تدخلوا بين البصلة وقشرتها كما يقول المثل الشعبى . ويقول المثل أيضا : ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه . .

ومن رأى الرئيس الأسد ان خرافات إسرائيل أصبحت حقائق بعد ذلك . فلو قال أحد فى سنة ١٩٠٠ أن إسرائيل سوف تقوم لها قائمة ، لقلنا أنه مخرف . ولكنها قامت . . وهم يقولون الآن : بل الدولة من النيل إلى الفرات!

ونحن نقول أنهم مخرفون!

فهل قصد الرئيس الأسد أن خرافة اليوم هى واقع الغد . . وعلى ذلك فحروبنا مع إسرائيل ليست إلا تأخيرا لقيام هذه الدولة التى سوف تضم العراق ولبنان وسوريا والأردن ومصر؟ هل ياترى كان الرئيس الأسد يرى أنه لا داعى للحرب فى سيناء والجولان وتركهما اليوم بالذوق بدلا من أن يستردهما بالعافية؟ وهل لا يصح أن نقاوم الهجرة اليهودية ونعمل على قيام الدولة الفلسطينية . مادامت هذه هى حقيقة الغد؟

لم يتسع الوقت لكى نستوضح الرئيس قد وجع لى عقلى ، ومشرط الجراح في يدك قد استأصل كل أمل فى النجاة والخلاص . . ولا أظنك تقصد ذلك . فأننا فى حاجة إلى ان نتعمق مقاصدك وأهدافك البعيدة جدا ، حتى لم نستطع أن نراها . .

سيادة الرئيس حافظ الأسد ، والله لقد أعجبنا بك وبقدرتك على توليد المعانى ونظمها فى خيط واحد . . ولكن هذه الشطارة قد اقلقتنا . فأنت شاطر جدا ياسيادة الرئيس واللغة طيعة على لسانك وكذلك النحو والصرف . . وأنت تعرف ياسيادة الرئيس أن هذه الشطارة محسوبة عليك . . لماذا؟

لابد أن نراك مرات أخرى!

(٢)

هذا المسجد الأموى الكبير الواسع طويل الأعمدة قليل المصلين كثير الزوار من السيدات والبنات . . أقامه الوليد بن عبد الملك بن مروان . . وفى ركن منه قبر الشهيد الحسين بن على . . القبر صغير جدا ..فى ركن حتى لا يطوف الناس حوله . . أو لسبب آخر لا أعرفه . . وله نافذتان صغيرتان من الزجاج . . انكسرت النافذتان بفعل فاعل حتى يلقى الناس بالفلوس فى داخل الضريح . . والفلوس واضحة . وكان من الممكن وضع صندوق للنذور ، بدلا من كسر الزجاج . . وأمام القبر رجل مشلول تمدد على اريكة يصلى . .

نحن نقول : أن رأس الحسين مدفون فى القاهرة ، واقمنا لذلك ضريحا أكبر من هذا الضريح الوف المرات وأفخم واجمل . . وهم يقولون بل دفن هنا .

ومن المؤكد تاريخيا أنه لم يدفن فى مصر ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد دفن فى دمشق!

ولكن الناس هناك وهناك يذهبون ويتبركون ويتضرعون ويبكون ويطلبون من الحسين أن يتوسط لهم عند الله سبحانه وتعالى وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ويوجد أيضا بالقرب من المسجد قبر صلاح الدين الايوبى . . انت تتحرك فى الضريح بصعوبة . وإلى جوار صلاح الدين ، وقائما فوق سطح الأرض قبر لرجل مجهول والمكان متآكل والزوار قليلون

وفى مواجهة قبر صلاح الدين قبر الصوفى الفيلسوف محيى الدين بن عربى مؤلف كتاب (فصوص الحكم) وهو داعية «وحدة الوجود» ـ قتلوه لأنه قال لهم : ان الذى يعبدون تحت جزمتى ـ وكان يقصد ان الذى تحت جزمته هو . . المال والسلطة والجنس!

تماما كما قتلوا الصوفى الكبير الحلاج عندما قال : لا إله إلا الله ما فى ملابسى إلا الله ــ وهو يقصد أن الله سبحانه موجود فى كل إنسان وحيوان ونبات وجماد . . فقد وسعت قدرته وحكمته كل شىء .

ولم يمهلوا أحدا حتى يوضح بالضبط ما الذى تحت حذائه وما الذى تحت ملابسه!

(٣)

أقول لك ما الذى نريده من سوريا . . فقط العلاقات الطيبة : الناس تروح والناس تجىء . . ونبيع ونشترى . . وأنت فى حالك وأنا فى حالى . . وتقرأ ما ينشرون ويقرأون ما ننشر . . ونستأنف كل الذى فات . . فلا هم اشرار ولا نحن ملائكة . . وإنما نحن مثلهم تماما عندنا مشاكل من كل لون وحجم . وعندنا آمال أيضا . . وإذا كانت هناك خلافات فى السياسة ، فلنجعلها سياسية فقط . . أى فى أضيق نطاق . .

ويجب أن نستبعد العبارة السخيفة جدا التى يحب المسئولون أن يرددوها ، لأنهم لا يجدون ما يقولون : لقد وجدنا أفكارنا متطابقة تماما . ومعناها أنه لاخلاف بيننا . وكأن الخلاف عار يجب أن نتستر عليه . بل يجب أن يبقى الخلاف . . لأنه من الطبيعى ان نختلف فى الأسرة الواحدة والدولة الواحدة . . فى السياسة والاقتصاد وفى الأدب والفن والعلاقات الاجتماعية . . والله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئين متطابقين : لا ورق الشجر ولا ذرات الرمل ولا النجوم فى السماء . كل شئ مختلف . .

ثم أننا نعيش فى عصر يؤكد بصورة صارخة فشل التطابق ، أمامنا هذه الدول الشيوعية التى أرادت ان تجعل الناس نسخة واحدة شكلا موحدا وزيا عقليا واحدا . . فشلت ، وفشلها عظيم . . وسعادة عظيمة للإنسان الحر المؤمن بالاختلاف والامتياز والتفوق . .

ويجب ان نكبر ونتجاوز المراهقة السياسية فلا نقول : يجب أن نحب بعضنا البعض . .

يا سيدى لا نريد هذا الحب ولا ضرورة له . . فقط اتفاق المصالح الفردية والشعبية . . فكل شئ بيع وشراء محاولة للكسب ، وهذه هى السياسة والاقتصاد والتعايش السلمى . .

فإذا استطعنا ان نضيف الحب إلى المصلحة فخير وبركة ، وإذا لم نستطيع فبركة!

وفى الشعر وفى الأغانى والزيارات والسياحة والسهرات والليالى الملاح : متسع لنا جميعا . . وهى إجازات وردية ناعمة خالية من الواقع . . فالحب أجازة والواقع هو بقية أيام السنة!

نحن و.. السعوديون

(١)

عندما يسألك السعوديون عن آخر زيارة لبلادهم فهم يسألونك عن شئ آخر هو : هل لاحظت تغييرا فى البلاد . والجواب المتوقع : نعم . . فالرياض تتسع . . وكل يوم يقتطعون مساحات هائلة من الصحراء ويضيفونها إلى المدن . . أو المزارع والحدائق . . فأهم معالم السعودية : البناء . . البيوت المتباعدة بعضها عن بعض . . فالسعودى يفضل البيت المستقل الذى لا يجرحه الجار، على الشقق فى عمارة . .

وفيما عدا المؤسسات والوزارات فإن كل البيوت لا ترتفع أكثر من طابقين . . ولذلك فلا معنى لناطحات السحاب . . فالشوارع طويلة وواسعة وملمسها حرير . . ويتحدثون هناك باستخفاف عن مشوار المائة كيلو أو حتى الألف . . بينما نحن نتحدث عن مشوار الهرم أو مصر الجديدة بمنتهى الألم . .

وكنا نجد صعوبة فى السفر إلى قرية الجنادرية أو قرية الفنون الشعبية ـ ذهابا وإيابا ـ فالمسافة خمسون كيلو مترا . . بينما السعوديون لا يجدون هذه المسافة تستحق الذكر . لأنها بمقاييسهم «فركة كعب» وإذا لم تقع عيناك على اللافتات العربية ونظرت

فقط إلى السيارات وانسياب المرور واحترام الاشارات ، فإنك لا تعرف إن كانت هذه أمريكا أو المملكة السعودية . فالكل يحترم إشارة المرور .

وجاء من راديو السيارة إعلان تنفيذ حكم الإعدام فى ثلاثة يمنيين اعتدوا على طفل حتى الموت . . وتنفيذ حكم الإعدام فى خادمة من الفلبين قتلت طفلة خنقا وهددت بقتل أم الطفلة أيضا وجاء فى صيغة المرسوم الملكى : أنه لا تهاون مطلقا مع الذين يقتلون النفس التى حرم الله . . ولا رحمة بالخارجين على القانون .

أما الكبارى هنا فإلى جانب مظهر القوة والضخامة فهى أيضا ناعمة الانحناءات . . وليست كتلا من الاسمنت المسلح «بالهبل» كالتى عندنا فى مصر والتى ظهرت مصارينها من تحت ومن فوق وتشققت سطوحها وتكسرت فوانيسها وتآكلت خرسانتها . . كأننا حققنا معجزة معمارية .

وهى أننا نبنى كبارينا قديمة أثرية!

كيف هذا؟ هذا هو سر العظمة المعمارية ثم نتباهى بأننا أحفاد بناة الأهرام ـ والمسافة فى الاتقان والبراعة بعيدة جدا .

أرجو أن تعيد النظر إلى كوبرى أكتوبر من أى مطلع ومن أى منزل .

(٢)

يقيم الحرس الوطنى السعودى مهرجانا للفنون الشعبية والحرف القديمة وندوات ثقافية أيضا . . ومن أهم معالم المهرجان سباق الهجين ـ أى الجمال ـ ويشترك الألوف فى سباق يسعد الناس هناك . . فهم جميعا من العرب أبناء البادية . ولا تزال أخلاق البدو والافتخار بالعروبة والإسلام من الصفات التى يتمنون أن تعود إلى كل العلاقات الإنسانية .

وبعد ذلك تجىء مواكب الفنون الشعبية . وتتسابق مناطق المملكة السعودية فى تقديم رقصة «العرضة» . . أهم الرقصات الشعبية وأجملها . وفيها تمثل الرجولة والفتوة والشباب والكبرياء أيضا . وليس هناك أحد لا يرقصها أو لا يتقنها . أو لا يباهى الاخرين بأنه أقدر . .

وفى نهاية يوم افتتاح المهرجان فى قرية «الجنادرية» يتقدم الأمير بدر بن عبد العزيز ويعطى السيف لولى العهد الأمير عبد الله . . ويتقدم ولى العهد بين الراقصين وينفرد بالرقص . . ويرى السعوديون أنه من أحسن الناس قدرة على الرقص . . ثم يلفون علم المملكة السعودية حوله ويتقدم ولى العهد الأمير عبد الله ونائبه الأمير بدر خطوة ناحية الملك فهد الذى يمسك السيف هو أيضا ويرقص فى اعتزاز وامتنان وسعادة . . ثم يلفون حوله العلم وتعالى الطبول ويتزاحم الراقصون ويرون فى ذلك تتويجا للملك وتجديدا . للعهد والبيعة وتعلو البهجة كل الوجوه ويصفقون وقد سالت الدموع فى العيون . . وتزداد سعادة خادم الحرمين وتجىء

الجماهير وتقبل يده ويبعث بتحياته لهم جميعا . . ويتعانق الناس . . لقد انتهى اليوم الأول للمهرجان فى نجاح بعد شهور من الاعداد الطويل والبروفات والضبط والربط بين الأغانى والموسيقى والاستعراضات ـ وقد نفذت بمنتهى الدقة .

وعندما ارتفع صوت المؤذن بالصلاة وقف السعوديون جميعا ملكا وولى عهد وكل الأمراء والوزراء يصلون بالجزم ـ أى لم يخلعوا أحذيتهم . . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلى والنعل فى قدميه مادام نظيفا . وهم يفعلون ذلك دائما . . وهم يطوفون حول الكعبة وقد ارتدوا أحذيتهم ـ مادامت نظيفة . . ونحن مندهشون لذلك ، وهم أكثر دهشة ، إذ كيف لا نعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بذلك!

(٣)

أما قرية الفنون الشعبية ـ الجنادرية ـ فقد أقيمت فيها قاعات لبيع الكتب وقاعات لعرض اللوحات الفنية . . وغرف للحرف والصناعات الريفية واليدوية القديمة ـ والتى لاتزال هناك . . مثل صناعة الجلود والاخشاب والصوف والفخار واللؤلؤ . . والناس يتفرجون ويتزاحمون ويسألون . . وهذا يدل على أنهم لا يعرفون شيئا عن ذلك . . فقد أقاموا فى المدن . . ولم يعد أحد يعيش فى الخيام أو فى بيوت الشعر ـ شعر الابل والأغنام ـ فالدنيا تغيرت .

رأيت طفلا صغيرا يتفرج فى ذهول على إحدى الخيام ويلمسها بيديه ويسأل كيف ينام وكيف يلعب الاطفال . . وأين دورة المياه والدش والبانيو .

إذن فلقد بعدت المسافة بين الحاضر وبين الماضى القريب . . والخوف ألا يذكر أحد ذلك . . وألا يعرف أحد كيف تغير وتطور هذا المجتمع السعودى الذى يقفز إلى المستقبل بسرعة أذهلت السعوديين أنفسهم ـ فالجامعات والمستشفيات والملاعب الرياضية كأنها فى أمريكا . . أو كانها نقلبت بالقطعة ثم أعادوا تركيبها هنا .

أما الندوات التى تصحب هذه المهرجانات فهى تناقش قضايا الساعة : احياء التراث الشعبى المخدرات . . الانتفاضة . . جورباتشوف . . وإعادة البناء . . المنتمى واللا منتمى فى الفكر الحديث . . ويستضيفون محدثين وأدباء ومفكرين من كل البلاد العربية . . ويشاركهم الادباء والعلماء من السعودية . . وهذه الندوات منضبطة جدا بالدقيقة والثانية!

وفى مواقيت الصلاة تغلق جميع المحلات وتنطفىء الأنوار فلا يدخل أى إنسان . . ولا تنفتح إلا بعد الصلاة دون أن يحتاج الناس إلى من يدق أبوابهم بالعصا : ينبه ويحذر . . أما ما الذى يفعله أهل الرياض ليلا فهم يذهبون إلى المحلات ـ معظمهم من السيدات ـ وبعد ذلك يختفون فى بيوتهم أمام الفيديو . . أو فى الأفراح والليالى الملاح ـ الرجال وحدهم والنساء وحدهن . ويقول الرجال إنهم سعداء بالبعد عن النساء وتقول النساء إنهن أكثر سعادة .

(٤)

من المؤكد أن أحدا لا يريد منك شيئا كأن يقول لك : إن والدنا الملك عبد العزيز قد أوصانا بوضوح قائلا : لاحياة للسعودية من غير مصر ولاحياة لمصر من غير السعودية . وان دولا وزعماء عربا لا يريدون هذه الوحدة الوجدانية .

هذا ما يقوله الأمير عبد الله ولى العهد . .

أو إذا قال الأمير بدر بن عبد العزيز : حلل دم أى سعودى وأنت تجد دماء مصرية . .

أو إذا قال لك فيصل بن فهد أمير الشباب : إننى فى القاهرة اشعر كأننى فى الرياض : حب وأمان!

أما الذى يقوله العلماء والادباء فهو : أدخل بيت أى إنسان مثقف واتجه مباشرة إلى مكتبته الخاصة . فسوف تجد أكثر الكتب مطبوعة فى مصر ولمؤلفين مصريين . . وحتى إذا لم تجد هذه الكتب ، فالأساتذة الذين تعلمنا على أيديهم مصريون . .

وإذا جلست إلى الملحنين وإلى الأطباء وإلى المهندسين . . وإذا جلست إلى المصريين من الأساتذة والأطباء والعلماء فإنهم يؤكدون لك أنهم يلقون أحسن معاملة وأنهم سعداء بحياتهم فى المملكة السعودية ويسعدك أكثر أن تجد بعض المثقفين السعوديين يعتب عليك عتابا شديدا . ويقول لك : يا أخى انكم تقللون من قدركم . . وتهاجمون بلادكم . . مع ان بلادكم قد امتلأت بالخير والإيمان وبملايين الشباب والمواهب

والقدرات من كل نوع . . وأن بلادكم فى خير . . عندكم كل شيء . .

فهو يعتب عليك أخلاقيا : إنكم لا تشعرون بالامتنان لبلادكم . . ويعتب عليك نفسيا أننا نعذب أنفسنا بتجريح حاضرنا وهدم مستقبلنا . . كثيرون ينطقون فى نفس واحد : حرام عليكم هذا الذى تعملونه فى مصر باقوالكم وأفعالكم واحد مهذب رقيق قال لى : لا مؤاخذة لا أصدق ما تنشره الصحف عن مصر ، فالناس فى غاية الصحة والعافية ، والشباب عشرات الملايين ، والأرض خضراء ، والعمارات شاهقة . . ومكانتكم بين العرب ، اردنا أم لم نرد ، فى أعلى مكان . . أرجوكم لا تسحبوا كثيرا من رصيدكم فى قلوبنا وعقولنا!

(٥)

أما المسلسلات التليفزيونية فالسعوديون أشقياء بها . . لأنها فضيحة واهانة بالألوان لكل الذى احترموه فى مصر وفى شعبها وفى أدبائها ومفكريها . .

ما هذه المناظر القبيحة؟ ما هذه المقابر الذى يسكنها الشعب المصرى . . وهل صحيح أن كل المصريين خائنون . . وأن كل المصريات غانيات ـ إن أفلامنا ومسلسلاتنا تقول ذلك وتعيده وتزيده وتكرره . كأها تريد أن تؤكد لنا . . فإذا لم يكن أحد قد صدق هذه المسلسلات التى ظهرت فى العام الماضى وكذلك الأفلام ، فالمسلسلات الجديدة شعارها : إن كنت ناسى أفكرك!

ثم ما هذا الانحلال والفساد والرشوة وخراب الذمم . . ماذا يقال للصغار والشباب . . ان الذى تبنيه المدرسة والمسجد والأسرة يهدمه التليفزيون والفيديو . . وأكثر من ذلك فإن السياح يهربون من هذه البلاد التى يحبونها ويعشقون أهلها . . فقد تغيرت وتعدلت وأصبحت وكرا للمجرمين واللصوص والدعارة ـ نحن الذين نقول ذلك . . فكأننا نحذر الناس أن يجيئوا إلى بلادنا . فإذا جاءوا فذنبهم على جنبهم وقد أعذر من أنذر . . إن بريطانيا فيها من السرقات والسطو والنهب والسلب والخطف أضعاف الذى تصوره أفلام مصر ، ولكن أحد لا يقول للعرب . . ملايين العرب بألوف ملايينهم لا تجيئوا إلى بريطانيا فنحن جميعا لصوص وبغايا . . ونحن لا نحترم الملكة والوزراء والأدباء والشعراء ـ لاشئ من ذلك تجده فى الصحف

البريطانية بينما الذى فى صحف مصر وعلى شاشاتها يكفى لانهيار الشرق الأوسط كله!!

ويسألونك : معقول ماكتبه فلان؟ وكيف يواجه أولاده وزوجته وأين ضميره؟

وهل الحرية فى مصر أنه لم تعد قيم ولا مبادىء ولا احترام لاحد . . وإذا كان هذا هو البناء فكيف يكون الهدم؟ وإذا كانت هذه هى الحرية فأين الضوابط وأين حق الناس فى ألا يعتدى عليهم أحد . . ولماذا قامت ثورات مصر إذا كان الطغاة الآن هم الذين مهدوا لقيام الثورات . . أى إذا أصبح القلم سيفا طائشا؟!

(٦)

أسعدنى بصفة شخصية أن أجد عددا كبيرا من الشبان السعوديين فى غاية الثقافة والحيوية والجدية وأنهم يتابعون ويناقشون ويحاسبون الكاتب المصرى كأنه كاتب سعودى . . ويرون أنه لافارق بين الاثنين . . فالمسئولية واحدة . . مادمنا عربا نكتب للعرب عن العرب وضدهم . . ومادام الكاتب يلقى هذا الاهتمام ويكون له هذا الأثر . . أى مادامت بيننا هذه ــ الكيمياء ــ أى التفاعل بين الكاتب والقارىء . .

اعجبنى الصحفيون الشبان والاذاعيون الشبان . . فهم علي دراية تامة بكل ما يدور فى الثقافة العربية . . ويرون العيوب واضحة ويجدون الرموز الحضارية بارزة هنا وهناك ثم إنهم قلقون على مصر أكثر من قلقهم على أى بلد عربى ويرون فى نهضة مصر نهضة عربية أو مقدمات لها . . ويرون فى انهيارها سقوطا لكل العرب . . ويتساءلون إن كان المصريون أنفسهم يعرفون ذلك . . إنهم يغفرون للمصريين أنهم لا يتابعون الثقافة فى البلاد العربية الأخرى . . ويقولون لك إننا نتسامح معكم بشرط أن تتسامحوا مع أنفسكم . . فأنتم قساة على أنفسكم ، طغاة جبابرة ضد مصريتكم وأننا لا نقبل منكم هذه الإهانة لمقدساتنا ومقدساتنا هى ما يقدمه علماء وأدباء وساسة مصر للأمة العربية!

وأننا جلسنا وأكلنا وشربنا وناقشنا وانتقدنا أنفسنا كانوا أسبق إلى توقيع الصلح السريع بيننا وبين أنفسنا ، وبعض الظرفاء يقول إن أم كلثوم لم تصدق فى شئ قالته قدر صدقها فى قولها : غلبت

أصالح فى روحى . . فهى أيضا تحاول أن تصالح روحها ولكنها لم تفلح وهى لم تفلح لأنها لا تريد ، وهى لا تريد لأنها تجد لذة فى تعذيب نفسها وإهانتها . . وهذا يضاعف عذابنا . . لأن هذه إهانة لعزيز لدينا . والعزيز لدينا هو كل ما هو مصرى وما حققته مصر لنا وللأمة العربية!

واحد قال لى : طبعا شوارعنا نظيفة جدا . قلت : هذا واضح ولامع . ثم قال لى : أقول لك ولا تغضب . . إن الشوارع لانتولى تنظيفها . . وإنما إحدى الشركات!

لابد من الكتاب

ذهبنا نشهد ونسمع إعلان مكتبة الاسكندرية التى أنشئت من ٢٣ قرنا وتضاعف طولها وعرضها من ٢٢ قرنا واحترقت من ١٩ قرنا ثم احرقت من ١٥ قرنا . . وقيل ان عمرو بن العاص سأل عمر بن الخطاب ما الذى يفعله بنصف مليون مخطوطة . . فقال له عمر إذا كانت تتفق مع القرآن ، فما حاجتنا إليها وان كانت تختلف فاحرقها فاعطاها عمر لأصحاب الافران . والحمامات ليحرقوها فى ٢٠٠ يوم ـ اكذوبة عمرها سبعة قرون . فالإسلام يدعو إلى التسامح ويحترم الرأى الآخر والدين الآخر . ولا أحرقنا كتابا ولا كاتبا ـ وإنما ظهر ذلك فى أوروبا النازية والفاشية والشيوعية التى أحرقت الكتب والمؤلفين . .

وانتشينا بكلمات الرئيس ميتران والأميرة كارولين والملكة صوفيا والملكة نور ورئيسة وزراء النرويج وأسعدنا أن تتسابق الدول العربية فى تدعيم صرح للثقافة العالمية . .

وتلقتنا أسوان الجميلة الهادئة أو الهادئة الجمال النقية الهواء . . واستراحت العين والأذن ونحن نقف نتأمل الجبال والمياه والاشجاروالقمر فى السماء والصفاء فى الوجوه والجمال فى العيون . . أو أن أسوان الجمال هى التى وقفت تحية واحتراما لمن يحترمون العلم فى بلد العلم والفن والعظمة بلد العقاد . .

لقد جاء بناة مكتبة الإسكندرية إلى مدينة النور الدائم . . إلى مدينة التوربينات التى تفيض بالنور على قرانا المظلمة الخاملة ، إلى مدينة العقاد احد ينابيع النور والابهة العقلية . .

لقد توجت السيدة سوزان مبارك عملها الوطنى : من مكتبة فى مدرسة مجهولة ، إلى مكتبة فى حى إلى مكتبة حديقة فى مدينة من أكثر المدن . . إلى مكتبة عامة فى الاسكندرية لكل أبناء البحر المتوسط وكل من يطلب نور العقل والقلب . . إن السيدة سوزان مبارك هى أول سيدة أولى تختار كتاب الطفل ومكتبة الشاب ومكتبة الأم أسلوبا وهدفا للخدمة العامة إن أعظم وانبل الأهداف تبدأ من الطفولة : آن يجد الطفل الكتاب وأن يحبه وآن يدمنه . . وأن يجده فى المكان النظيف الجميل . . وان تلتقى الفائدة والمتعة فى مكان واحد «فى المكتبة الحديقة» وبعد ذلك أن تكون له مكتبة خاصة . . فلابد من الكتاب فى كل البيوت!

يا أهل أسوان علمونا..

(١)

يا أهل أسوان بالله عليكم علمونا كيف يكون الصفاء والنقاء . . يا أهل أسوان علمونا كيف يكون هذا الهدوء كيف يتحدث الواحد منا إلى الواحد منكم فلا يهتز ولا يرد ولا ينطق إلا بعد لحظات . . لعل كلامنا لم يبلغه . . لعل الهواء عندكم لا ينقل من الكلام إلا ما يجده عقلا منطقيا ضروريا . . بالله عليكم ابعثوا لنا بعضا من هوائكم فلا ينقل إلا المفيد من المعانى وإلا الهادى من النبرات .

أقول للسائق : من فضلك فلا يلتفت . . أسأله : هل تسمعنى . . فيلتفت السائق ولا يقول شيئا وإنما المعنى هو : كيف لا اسمعك وأنت تضع رأسك وراء رأسى . . ومع ذلك لا يجد ضرورة أن يرد . . ليس استنكارا ولا رفضا . . ولكن لا يستطيع ان يجارى قلقى . . فإن حاولت أن أغير السؤال وأقول له : والله بلدكم جميل . . فلا يرد إما لأنه قد سمع ذلك ألف مرة . . وإما لأنه على يقين من ذلك وليس فى حاجة إلى مزيد . . وإما لأنه ليس عنده ما يضيفه . وإما لأننى لم أقل شيئا يستحق التعليق . . ولكنه يمضى فى سماعه للموسيقى والغناء النوبى الجميل . وكنت أظن أن المطرب النوبى له لهجة غير مفهومة . ولكن وجدت أغنيات

النوبيين مثل أغنيات الجماعات ذات القضية كلها شجى وأسى وصدق . . تماما مثل أغنيات أهل أرمنيا وجنوب إيطاليا والبحرين وأمريكا اللاتينية . .

وأقول للسائق : أغنيات نوبية؟

فيقول بكل اعتزاز : نعم . .

فأقول له : خليط من البدوية والمغربية . . فلا يرد . كأنه لا يجد ذلك صحيحا . أو كأنه مستمتع بذلك ومثل هذهٔ التصنيفات لا تهم . قلت له : أرجو أن أسمعها مرة أخرى . . ولم يسأل : إلى أين؟

لا هو يهمه ان يذهب ولا أنا وإنما استغرقتنا نشوة الغناء الحزين فى البلد الذى يتفجر بالصفاء والنقاء وفى السوق وجدت الأغنيات النوبية هى الأكثر انتشارا . وعلى الفم من أن ايقاعها سريع فإن نبراتها حزينة . . كأن الملحن والمطرب والمؤلف معا يستعجلون الحزن أن ينتهى وأن تجىء أغنية جديدة تكرر نفس الأهات ولكن بصوت ولحن جديد . . ولم استمع إلى أغنية واحدة قاهرية . . ومع سمرة الوجوه والقوام الممشوق والاقلية الأوروبية البيضاء ، أحسست كأننى فى واحة نوبية على الحدود بين مصر والسودان . .

(٢)

للأستاذ العقاد فى بلده أسوان ، وقد ناديت عشرين عاما بأن تكون له مكتبة وشارع وتمثال . . فكان له أجمل شوارع مدينة نصر . . وناديت بذكراه المئوية فى عشرين مقالا فى أخبار اليوم ودعوت لأن تحتفل مصر بمرور مائة عام على مولده مع طه حسين والمازنى وعبد الرحمن الرفاعى وميخائيل نعيمة وايليا أبو ماضى وكوكتو وشارلى شابلن والفلاسفة : هيدجر ومارسيل وفجتشتين وغيرهم فكان كل ذلك وزيادة ولقى الاستاذ العقاد من التكريم بعد ميلاده بمائة عام مالم يلقه فى حياته . .

قال لى أحد أقارب العقاد : ولكنك مختلف عن العقاد تماما . كيف؟

قلت : كالعقاد فى سلوكه اليومى لا يصح أن يكون أحد . فحياته منضبطة كالساعة . وإذا خرج عنها ارتبك . وقد أمضى عمره كله لا أن يضبط حياته على الناس ، وإنما أن يرغم الناس على أن يضبطوا حياتهم عليه . . فإذا كان موعدك معه فى الخامسة ولم تأت قبلها بدقيقة أو بعدها بدقيقة أقفل الباب ورفض استقبالك . . وكان العقاد يبعث لى بمقاله فى العاشرة صباحا مع سائق سيارته ، فتأخر السائق يوما . . فباع الأستاذ السيارة وجعل السائق يجىء فى تاكسى . . مع أنه لو بعث بمقاله فى الثانية عشرة ظهرا أو العاشرة مساء فلن يؤدى ذلك إلى الاضرار بالمطبعة أو الصحيفة . . ثم أن العقاد كان عصبى المزاج جدا ولذلك كانت شكواه من أمعائه ومصرانه الغليظ ومن الإمساك ومن الصداع . .

فكيف أعرف كل ذلك عن العقاد ، وإلا أكون مثله . . إن العقاد نموذج لما يجب ألا يكون عليـه الأديب والمفكر . . وعلى الرغم من أنه يحكم بالعقل فى كل شئ ، فإن العقل قد عجز عن إدارة حياة العقاد!

والعقـاد دليل على آن الموهبـة منحة شخصية . فالله قد أعطاه هذا العقل الجبار وحده ، ولم يكن للعقاد أولاد . . وحتى لو كان له أولاد ، فـلا مـوهبـة لـهم . . ولا أولاد طه حـسين والحكيم وكل العظمـاء فى التـاريخ . . فـالعـقـاد هدية لبلده ، والموهبة هدية له . . يعيش ويتعذب بها ، ويموت عليها وبسببها . . وكما ان حياته فردية فموته وبقاؤه كذلك!

(٣)

أما كيف كانت أسوان قبل السد العالى فهذه أيام لن تعود . . لن تكون شوارعها خالية . . ولن تجد على مقاهيها ثلاثة أو أربعة من الناس . . ولن تجد دكاكينها مفتوحة وأصحابها ذهبوا للصلاة ولم يعودوا . . فلا أحد يدخل الدكان أو يجرؤ على ذلك . . ولا كانت تعرف الامطار . . وإنما هى كانت علاجا بحرارتها وجفافها لكل متاعب الروماتزم . وتقال أسباب كثيرة لهذا الاستشفاء منها : انكسار الاشعة أو الجفاف الهادئ . . أو الهدوء الجاف أو كثرة الاوكسجين وانعدام الصوت . . أو إنها أسوان وكفى!

ولكن السد العالى الذى حبس الماء أمامه ، أطلق أهالى المحافظات الأخرى على أسوان . . أبناء قنا هم الذين بنوا السد العالى ــ هم يقولون . . وأهل سوهاج هم الذين استولوا على البحيرة واسماكها ــ أهل أسوان يقولون . . ولما أحس أبناء المحافظات الأخرى بالغربة والغرابة والاغتراب فى أسوان تزوجوا بناتها وأقاموا فيها . .

وظهرت الفتيات فى فساتين من كل لون وطول . . ورأى أهل أسوان بناتهم المتعلمات يخرجن كاشفات الذراعين والساقين ولا يجرؤ أحد أن يسأل : لماذا؟ فقد جاءت بنات الشمال وخرجن وترددن على المحلات والمطاعم وركبن السيارات والحنطور . . انتهى . . أما الرجال فتزوجوا من بنات الشمال أيضا . . من الاسكندرية والقاهرة . . استوردوا فتيات ليست لهن مطالب صعبة كالتى تطلبها بنات أسوان . . السد العالى زلزل أسوان اجتماعيا واخلاقيا .

ولكن بنات النوبة تمسكن بالتقاليد والملابس السوداء الطويلة أو البيت بعد أو وجدن بنات أسوان قد تحررن من هذه القيود . . فكان لابد من التمسك بالماضى دليلا على عدم الانسياق وراء الزحف الشمالى على المدينة الهادئة الآمنة . .

قال لى شاب نوبى : الآن ذهبت زوجتى لتنام . . فهى تنام بعد، المسلسل . .

أى أنها مختلفة ، وحريصة ـ على ذلك وهو أيضا ـ على التمسك بالعادات القديمة . . بعادات أسوان ما قبل السد العالى التى كانت ولن تعود!

إننى رأيت فقط شارع الكورنيش والشوارع الموازية له . . أى الجانب المضىء الذى لا ينام ، أما بقية أسوان فهى كما قبل السد العالى مع إضافة شىء من الضيق بهؤلاء الوافدين عليها من الشمال : الأكثر نشاطا وحيوية وانقضاضا على خيراتها . .

ومبانى أسوان مثل مبانى الأقصر ليس لهالون أو مذاق تاريخى ـ أى بلا شخصية!

(٤)

وأنا أغرق نفسى فى روائح العطور فى شوارع أسوان الضيقة . . الروائح تتماوج وأنا زورق بلا خيط بلا مجداف بلا دفة . . أعطى نفسى لروائح البخور والقرفة والكركرية والزعتر . . وروائح الكباب التى لا أحبها لأننى أجد فيها رائحة الدهن وأنا لا أحب لا اللحوم ولا الدهن . . وموجات من الموسيقى الشابة المجنونة الايقاع . . مصرية وليبية ومغربية ونوبية . . وأصوات الأذان يسود كل ذلك . . والدعوة إلى الصلاة مع زمجرة اللوريات . . والسياح دائخون من زحمة الألوان والعبق وتجىء فتاة تسأل مستنكرة : الكتب فى معرض القاهرة غالية الثمن . . ان مرتبى تسعون جنيها كيف اشترى كتابا بعشرين؟

ويسألنى قارىء شاب : ولماذا لا يجىء معرض الكتاب إلى أسوان؟

سوف يجىء . ولكن الأسعار سوف تبقى كما هى . .

وسؤال آخر : لماذا لا تكون أسوان هى العاصمة الثالثة بعد القاهرة والاسكندرية لإقامة هذا المعرض السنوى للكتاب . . أو يقام فيها معرض مرتين فى السنة . . إن عندنا متسعا من الوقت للقراءة . .

ولماذا لا تقام المعارض الفنية والحفلات الموسيقية . . ويكون فى أسوان مسرح أو دار أوبرا . . فالناس هنا لا يجدون متعا فنية من أى نوع . . إلا المشى على الكورنيش أو الجلوس فى المقاهى أو النوم

أمام التليفزيون! ويقولون لى أنهم يندهشون من القاهريين الذين يجيئون إلى أسوان . . إنهم يفضلون البقاء فى غرفهم يتأملون النيل . . أو يركبون الزوارق ليناموا فيها . ولكن احدا منهم لا يفكر فى الالتقاء بنا ، ليكون حوار أو حديث من أى نوع . .

وإذا فكر واحد منهم فى الحركة فإنه يدور حول الفندق أو فى داخله . . وبعد يوم أو يومين يعودون إلى القاهرة .

نحن نعذرهم فقد جاءوا للراحة من القاهرة . . ولا يريدون أن تصبح أسوان قاهرة أخرى!

أذكر أننى كنت مع الشاعر الروسى يفتشنكو فى أسوان وكان قد استلقى على ظهره فى أحد الزوارق فى النيل . . وقد انطبع القمر والنجوم على سطح النيل فقال : من الذى يستطيع أن يقنعنى بأننى لست فى السماء؟!

ففى أسوان سماؤهم نيل ، ونيلهم سماء!

(٥)

هناك طريقتان لكى تكره مدينة القاهرة : أن تعيش فيها وأن تذهب إلى أسوان . . وهناك طريقتان لكى تحب مدينة أسوان : أن تعيش فيها وان تعيش فيها . .

فقد اشرقت الشمس أمس . . إننى لم أر شروق الشمس فى الأربعين عاما الماضية إلا مرتين : مرة ونحن فى الطريق من روسيا إلى كوبا . . فبعد ان غادرت الطائرة الروسية العملاقة منطقة القطب الشمالى بساعتين نظرت إلى جناحى الطائرة فوجدتهما فى لون الدم . . إنها الشمس قد بزغت فى محيط من النار المشتعلة . . إنها تشرق!

وفى المرة الثانية عندما طلب منى المرحوم الشيخ الباقورى أن نذهب إلى المسجد الأقصى سيرا على الاقدام لصلاة الفجر . . وقد وقفنا معا ننظر إلى القدس المحتلة احرقتها نيران الشروق .

وأمس فى أسوان رأيت الرمال الحمراء ذهبية والمياه الخضراء نحاسا لامعا . . والطيور كأنها حروف ملتهبة تهبط فوق الكلمات وتحتها . . إن الشمس قد اشرقت فى حياتى للمرة الثالثة . .

أما كل يوم فإننى انكفئ على الورق فى الساعات الصغيرة من كل يوم ، ولا أرفع عينى إلا عندما تكون الشمس قد ملأت الدنيا ضياء أما حريق الشفق فلا آراه وأما دخان الغسق فلا آراه أيضا . .

كل ذلك يحدث كل يوم . . يراه الفلاح فى الحقل ولا يدرى به ، ولا يراه الأديب أو الفنان ، مع أنه يسعده ويعيد ترتيب خلاياه وينعش خلاياه ويشحن بطاريات ابداعه فما الذى رأيت لأول مرة؟

رأيت كيمياء الألوان . . كيف يتداخل اللون الرمادى فى اللون الأحمر فى الاصفر فى الابيض . . ما هذه العبقرية التى تذيب الألوان بعضها فى بعض . . ما هذه الاصابع السحرية . . هذه الفرشاة المعجزة التى ترسم وتصبغ وتجعل كل شئ سبحان الله خالق الألوان مبدع هذه المخلوقات . . والذى ابقى لنا الأحساس بكل ذلك . . فلم تستطع القاهرة بترابها وهبابها وضبابها وضوضائها ان تجهض الذوق وتشنق الوجدان . . إن ميلاد الشمس قد ساعد على ميلاد الأحساس بكل ذلك . فكيف لا نحب أسوان؟!

وكيف لا نحترم أنفسنا لأننا نفعل ذلك؟!



(١)

هل الرياضة عندنا (شلل وشلت)؟ أى هل الرياضة عندنا شيلنى وشيلك ونحن جالسون على الشلت لا لعبنا ولا درسنا ولا تعلمنا ولا كان لنا تاريخ رياضى من أى نوع؟ أو هل التوجيه الرياضى أو الإدارة الرياضية مكافأة ، أو علاوة نعطيها لأحد الناس ثم نطلب منه أن يجعل السماء تمطر ذهبا وفضة وبرونزا فى برشلونة وقبلها فى سول وبعدها فى اطلانطا؟ هل نحن مصرون على ان يحترم اللاعب كل من المدرب والمدير وهو على يقين من أنهما لا يفهمان فى الرياضة وإنهما مفروضان عليه؟ والناقد الرياضى هو الآخر مشكلة . . وهى ليست مشكلة رياضية وإنما هى مشكلة أخلاقية وفنية أيضا .

بعبارة أدق أن النقد الرياضى مثل النقد الأدبى والنقد الفنى والفتوى الدينية . . فكل إنسان فى مصر يفتى فى كل شئ ، ويجد من ينشر له أو يذيع له .

وإذا كان عندنا فى مصر ٥٨ مليون سيد طنطاوى كلهم يفسرون ويتبرعون بالرأى فى كل شئون الدنيا والدين ، فأين الشعب نفسه؟!

من الذى يستفيد من هذه الفتوى ، وإذا كان الناس يطعنون فى علم الناقد وإخلاصه فكيف يسمعون إليه ويحترمونه . . هذه هى الآفة الكبرى . . فكل من يمسك قلما يجد أن من حقه ان يكتب وكل من يجد نفسه بالقرب من الميكروفون فمن حقه أن يقول وأن يغنى ، وكل من يمشى على قدميه من البيت إلى المكتب نراه رياضيا ومن حقه أن يوجه الرياضة فى المحافظة أو فى مصر كلها . . ولكن من الذى يشجع الناقد على أن يقول والمفتى على أن يعظ . . يشجعه على ذلك أننا لسنا جادين . . وأننا لا نحترم العلم ، ولا نحترم تخصص العلماء ، ولا نحترم الناس ، أى لا نحترم أنفسنا ، فإذا كنا هكذا لا نحترم أنفسنا . فكيف نطلب من اللاعب أن يضرب سلاما عظيما لمن ليس عالما ولا متخصصا؟!

فى يوم من الأيام جاءنى صديق ناقد رياضى يطلب إلىّ أن أتولى رياسة ناد أو جمعية أو لجنة سباحة المسافات الطويلة نكتة طبعا ، ولكنى وجدته جادا فازددت ضحكا! إذ كيف يشرف على سباحة المسافات الطويلة من لا يعرف إلا الدش الساخن صيفا وشتاء ، ولكن فى بلدنا ممكن وقد أمكن كثيرا وهذه هى المأساة!

(٢)

الرياضة ليست لهوا . . الرياضة جد فى جد . . علم له قواعد وأصول وعلماء . . وفن أى تطبيق لهذا العلم وفى حدوده . . ولذلك فيها القانون والحكمة وفيها العقوبة المادية والمعنوية . وهى أيضا مثل كل الفنون الجميلة . . فأنت ترى اللعبة الحلوة وتقول : الله . . تماما كما تقول لأم كلثوم . . وتقولها لأمير الشعراء أحمد شوقى . . وتقول أيضا : مزيكا . . وتقصد أن انتقال الكرة من لاعب إلى لاعب آخر كانتقال العازف من نغمة إلى نغمة أو من طبقة إلى طبقة . . فالانتقال هادئ منسجم . .

أنا سمعت المعلق الرياضى المرحوم فريد حسن وهو يعلق على إحدى مباريات الملاكمة بقوله : الله . . هذه خنقة جميلة!

تفسير هذه العبارة : إن الناقد الرياضى وجد أحد الملاكمين قد أمسك منافسه مسكة جميلة . . صحيح أنها خنقة ولكنها من وجهة نظر الناقد فيها جمال وهى جميلة لأنها بارعة ولأنها لم تخرج على القواعد .

وأنا سمعت معلقنا الرياضى على الجودو يقول : الله!! وأنا لا أفهم ما الذى أعجبه . ولكنه والذين يفهمون الجودو ويمارسونه يشاركونه هذا الأعجاب ولابد أنهم قالوا معه : الله أكبر . .

وأنا وأنتم سمعنا معلقنا الرياضى الكبير علي زيوار وهو يقول : يا ولد ياولد . . ياعظيم أنت . . يا عظمة!

وأنا لم أر أثرا لهذه العظمة . ولكنه كعالم رياضى يعرف ما يقول . ويؤيده المشاهدون أيضا . فهو يرى العظمة فى يقظة اللاعب وفى براعته فى تمرير الكرة أو تسديدها أو أصابة الهدف . . . بل من الممكن أن يكون عظيما حتى ولو لم يحرز أى هدف . . وإنما (فكرة) القذيفة التى أطلقها . . إلخ . .

وقد تفرجت على مباريات دولية فى الشطرنج . . وكنت أجلس بالساعات . . ومعلوماتى قليلة . . ووجدت واحدا يفتح زجاجة شمبانيا ابتهاجا بإحدى (النقلات) أى تحريك قطعة شطرنج لأحد الأبطال . فقد وجدها قمة فى الذكاء والأستاذية . . وقد رأيتها كما رآها ولم يبهرنى هذا الشعور . ولكن الذين يفهمون ويعلمون يرونها كذلك . . فالشطرنج لعب ككرة اليد والقدم والماء والطاولة . . ولكنه لعب علمى . . أو هو علوم اللعب وفنونه الجميلة . .

(٣)

من عيوب الرياضيين أنهم ليسوا رياضيين ، أى يتدربون كل يوم وحتى الموت . وأنهم يحترمون اللاعبين وقوانين اللعب . . ويرون ويؤمنون بأن الرياضة غالب ومغلوب . كرة هنا وكرة هناك . . وان الفلك دوار . . مثل الكرة . . يوم لك ويوم عليك . . وان الكرة كل يوم فى شبكة . .

وكما أن الكاتب يجب أن يقرأ والرسام يجب أن يرى لوحات الآخرين . . والموسيقيين يجب أن يعطوا آذانهم لأعمال غيرهم ، فكذلك الرياضة كلها . الرياضة تعيش على الرياضة ، على مشاهدتها ومتابعتها وتحليلها ودراستها!

وكذلك الفنون تعيش على الفنون : فالرسام لا يتعلم الرسم من النظر إلى غروب وشروق الشمس وتفتح الورود وتساقط الندى والعواصف ، وإنما يتعلم الرسم من تأمل الأعمال الفنية للفنانين الآخرين . . يرى أيديهم على اللوحة ويرى تداخل الألوان ويرى «سحبة» الفرشاة يمينا وشمالا . . فالفنان يتعلم من الفنانين . . وكذلك الموسيقار لا تتولد موسيقاه من خرير المياه وزقزقة العصافير ونواح البلبل ، وإنما من الاستماع إلى الأعمال الموسيقية وتحليلها وتعمقها والتمتع بها . . لقد كنت أرى أن د . يوسف شوقى فى تحليله لأغنيات عبد الوهاب هو أحسن ناقد موسيقى . حتى استمعت إلى عمار الشريعى فى برنامجه «عوام فى بحر النغم» . فوجدت أنه أحسن وأروع وأعمق والطف وأظرف ناقد للموسيقى . عنده حسن مرهف وعلم غزير ، ومفرداته اللغوية والبلاغية كثيرة

جـدا . فـقـد اسـتطاع عـمـار الشـريعى ان يضىء لنا الطريق إلى الأغنيات والموسيقى التى سمعناها ألف مرة ، ولكن لم نكن نرى الذى فتح عيوننا عليه . . والذى وضع أصابعنا فوق نبضه . . لماذا؟

للسـبب الذى ذكـرته فى البـداية وهو ان الفن يعـيش على الفن . . أى على الفنانين . . والرياضـة تعـيش على الرياضـة ، أى على الرياضيين فى مصر وفى غيرها من الدول . وهذا هو السر فى المباريات بين الأندية فى الدولة الواحدة والقارة الواحدة والقارات والدورة الأوليمبية . فمن المستحيل ان تكون ناقدا متفوقا لا تعلم ولم تمارس . . ولا مدربا ولا مشرفا .

وكـما أنه لا يصح أن يكون أسـتاذ جـراحـة المخ مـدربا لحـمل الاثقـال ، ويكون السـبب فى اخـتيـاره أنه جـراح عظيم ، فكذلك المسئـول عن الرياضـة لا يكون كـذلك لأنه تاجـر شـاطر أو مـزارع جدع . .

هذه هى أس البـلاء فى مـصـر كلهـا : فى الصناعـة والزراعـة والاقتصاد والسياسة . . وليس فى الرياضة فقط!

(٤)

منذ سنوات عرضت على الرئيس حسنى مبارك تقريرا أمريكيا عالميا خطيرا جدا . وكان ذلك فى بيته . التقرير عنوانه (أمة فى خطر) . الأمة هى الولايات المتحدة الأمريكية ، أما الخطر فهو الجهل الذى يتهدد العلم والمتعلمين ومستقبل الحضارة الأمريكية فى مواجهة الحضارة الأوروبية والروسية واليابانية .

وقد بعث الرئيس مبارك بهذا التقرير إلى د . مصطفى كمال حلمى وزير التعليم فى ذلك الوقت . فعلق عليه فى مجلة «أكتوبر» عدة مقالات عن حال التعليم فى مصر . وعندما قام د . فتحى سرور بمشروع لاصلاح التعليم فى مصر ذكر هذا التقرير أيضا وتحدث عن خطورته!

فما الذى حدث فى أمريكا؟

لقد أحس الأمريكان أنهم تأخروا عن روسيا فى عالم الفضاء . . وتأخروا عن اليابان وألمانيا فى دنيا الالكترونيات . . وأن وأن . . ولابد من حل ولكى يكون حلا لابد من تشخيص . أما التشخيص فقد قام به مئات علماء النفس والاجتماع والتربية . . فماذا وجدوا؟ وجدوا ان الطالب الأمريكى لا يفرق بين مدرجات البحث العلمى وساحات الملاعب . . ولا بين الكافتيريا والمعمل . . وأن الطالب الأمريكى يريد ان يكون كل شئ له مذاق وشكل وحجم الساندوتش : فيه شئ من كل شئ ويمكن أن يضعه فى جيبه وان يأكله جالسا وواقفا على سلم الترام . . يريد أن يكون كل شىء سهل التناول رخيص الثمن لا يوجد أسنانه ويرهق

مـعـدته . . ووجـدوا ان الطالـب الأمـريكى لا يعـرف إلا اللغـة الانجليزية ، حتى هذه اللغة لا يتقنها . .

ووجدوا ما هو أخطر من ذلك : وهو أن المدرس الأمريكى ليس مؤهلا للتـدريس ، وأهم من ذلك ان المدرس الأمـريكى يتـقـاضى مرتبا هزيلا . . فكيف ينشـر الأمل وهو يائس ، وكـيف يدعـو إلى الانطلاق والتفوق وهو قعيد «قرفان» من عيشته . .؟!

وقرر الرئيس الأمريكى أن تظل اللجنة التى أعدت هذا التـقرير منعقدة حتى نهاية القرن . . حتى يجدوا حلا للخطر الذى يتهدد أمريكا كلها فى عزيز لديها : التفوق على العالمين!

وبما أن اللعب علم وفن . . وبما أن اللعب نشاط جاد ، فلابد من اصلاحه . ولا يكون الاصلاح إلا مع اصلاح التعليم والتربية . . التعليم فى الكتب والتربية فى البيت والشارع والنادى . . وبدلا من ان نعثر على المواهب فى الحوارى ، فيجب أن نعثر عليها فى المدارس : فنكون أكثر علما واستقرارا وأصح جسما وعقلا . .

(٥)

طلب منى السيد النبوى اسماعيل وزير الداخلية الأسبق أن اذهب إلى المحكمة لأن القاضى يتوهم أننى اتعالى عليه؟! ففى كل مرة يسأل عنى القاضى يقول المحامى : أنه فى لقاء مع السيد الرئيس . . ويؤجل القاضى الجلسة إلى يوم آخر . . وتضايقت من سلوك المحامى . وذهبت ودخلت غرفة ووجدت القاضى جالسا فصافحته وجلست ووضعت ساقا على ساق انتظر القهوة . وجاء المحامى وتحدث إلى القاضى . وبعد دقائق أشار المحامى بالخروج وقمت وصافحت القاضى ، وفاجأنى المحامى بأننى ارتكبت أخطاء جسيمة ، فأنا صافحت القاضى وهذا ممنوع ، وجلست دون أذن ووضعت ساقا على ساق وصافحته وكل ذلك غلط فى غلط لأنها محكمة واجبة الاحترام!!

وقبل ان أعود إلى البيت كتبت مقالا اعتذر فيه للقاضى عن الذى صدر منى عن جهل ولولا سعة افق القاضى وادبه لأمر بحبسى .

فلماذا أذن نجد اللاعبين يتشاجرون مع الحكام . . لماذا لا يحترمون حكم هذا القاضى؟

إنها اللامبالاة . . أنه الجهل ، ويكون هذا الجهل فادحا والسلوك وقحا إذا ذهب اللاعبون إلى بلاد أخرى غير مصر . . أما فى مصر فاللاعب يحتمى فى شهرته أو نجوميته وفى النادى الذى ينتسب إليه . . ثم إنه يجد من يدافع عنه ويهاجم الحكم . . فاللاعب الذى يشتبك بالحكم يشبه الناقد الذى يدافع عنه . . يشبه

الجمهور الذى تتحول الكلمات فى يديه إلى طوب وإلى علب فارغة . . إنهم جميعا لا يحترمون القانون . .

أما الحكم . . أو القاضى ـ فعنده القانون . . ولا يهمه اللاعب أو الجمهور ، خصوصا إذا كان الحكم اجنبيا . . ولكن يبقى العار لاصقا باللاعب وبالجمهور وبالناقد الذى لا يختلف كثيرا عن اللاعب الخارج على القانون . .

إذن ـ فنحن جميعا لا نحترم القانون ـ فكيف يحترمه من جاء أكثرهم من الحوارى مباشرة إلى الإستاد؟!

(٦)

أعجبني الحديث الذى نشرته الأهرام لوزير التربية والتعليم د .حسين بهاء الدين . وكنت قد سمعت منه ما أسعدنى فى نقاش امتد من القاهرة إلى فيينا .

ود . بهاء الدين قد استوعب تماما مواطن الضعف فى المدرسة . . أو ما بين التلميذ والمدرسة والكتب وحوش الالعاب . . ود . بهاء الدين يريد أن يعيد للمدرسة احترامها وللمدرس كرامته . . وان يجعل التلميذ مرتبطا بالحب والاحترام بالفصل والكتاب والمدرس . وبذلك يكون له دوره الحقيقى فى تنوير وبناء مصر . .

والمهمة شاقة جدا . والأمل العظيم . . والعين بصيرة واليد قصيرة والعمر أقصر . . وقد قال لى د . بهاء الدين ان العلم المصرى يجب أن يرتفع كل يوم . وان يقف الطلبة فى خشوع وان يرددوا النشيد القومى . وأن يبدأ اليوم الدراسى بهذه الصورة الكريمة القائمة على احترام رموز مصر . . والعلم نور للتلميذ والشارع والبيت والملعب . والله اننى اشتاق لرؤية علم مصر على كل العمارات والبيوت . . إن هذا المنظر يبهرنا فى أوروبا وأمريكا فالعلم مرفوع على كل شيء . . حتى ليخيل للإنسان أن هناك مناسبة وطنية . لامناسبة . وإنما العلم يجب ان يكون مرفوعا كل يوم فى أى مكان . . أى ان تكون الدولة مرفوعة والرءوس والمعنويات أيضا وان هذه هى البداية اليومية لشيء عظيم هو بناء الإنسان والوطن والحضارة الإنسانية!

وأتمنى لو عدنا إلى العلم المصرى القديم الذى له معنى . . أما هذا الذى لا معنى له ولا شخصية ، وهو خليط بين علم سوريا والعراق واليمن ، ولا أعرف أن كانت هناك أية دول أخرى تشاركنا فى هذه الألوان . . علم بعصفورة وعلم بصقر وعلم بنسر وعلم بشرطة! لماذا لا تلتقى هذه الطيور معا وتخطف هذا العلم وتذهب به إلى غير رجعة!

وحتى إذا بقى كما هو ، فهو رمز لمصر وهو واجب الاحترام فى المدرسة والملعب والشارع . .

وما قاله د . حسين بهاء الدين يعجبنى لأنه يتفق مع الذى أردده كثيرا من ان البداية هى التناول الجاد المنضبط للعلم واللعب . . واللعب علم وفن . وهذه هى البداية لكل نجاح وكل تفوق .

(٧)

مع الأسف الشديد لست رياضيا . . وإن كانت عندى روح رياضية . . أقبل الهزيمة واتطلع إلى النصر . . وأرى الوقوع والتعثر والتخبط فى سير الطفل مرحلة . . أو هى ضرورة لكى تقوى عضلات الطفل وينضبط جهازه العصبى . .

وأرى أن الطفل يجب أن تتركه يبكى . فالبكاء لا يضره ، وإنما يقوى حباله الصوتية ورئتيه . . وفى نفس الوقت لا يستخدم الطفل دموعه كوسيلة للضغط على والديه من أجل ان يرضع عندما يريد . . وليس عندما تريد الأم التى تعرف أكثر ، وأنا لا أقوى على سماع بكاء طفل أو قط أو كلب . . وليست عندى شجاعة أن اسمع ذلك وأسكت . ولكن الأطباء وعلماء النفس يرون غير ذلك . . وأذكر أننى كنت أزور صديقا زوجته أوروبية . . وجاء موعد الغداء وابنهما الطفل لم يتوقف عن البكاء . واندهشت كيف تأكل وتشرب والطفل يتمزق حنجرة وصدرا . ولكن والديه لايهتمان لذلك ويقولان سوف يسكت حالا . وسكت الطفل واستغرق فى النوم!

وكذلك يجب أن ننظر إلى أخطائنا وسقطاتنا وهفواتنا علي أنها مرحلة يجب أن نمر بها وألا نتوقف عندها طويلا . . وأن نمضى إلى ما بعدها . . وأثناء الانتقال يجب أن يكون هناك انتقاء أيضا . كيف؟ هذا شأن الرياضيين المدربين والمشرفين . . ولن يحدث ذلك بسرعة . فلا شئ فى مصر يقع بسرعة إلا الخطأ وإلا التدمير والتخريب . ولكن يجب أن ننتقى اللاعب والمدرب . . وأن نصبر

على أنفسنا ، فكلنا عيوب . وأخطر عيوبنا أننا (شخصيون) . . أى أن كل شىء يرتبط بالاشخاص وبالمصالح الشخصية . . فالشخص قبل الفن ، والمصلحة قبل الوطن . . وهى عيوب عريقة عميقة!

وليس فى الذى أقوله هذا أى مبدأ من مبادئ الرياضة ، ولكنها مبادئ أخلاقية اجتماعية . . ولا تنفصل الأخلاق عن العلم ولا عن الجد ولا عن اللعب . . وكلها بديهيات فى السلوك الإنساني يعرفها اللاعبون والمتفرجون ، ولكنهم ينسونها فى الملاعب والمدرجات عند كل مباراة!

وليس غريبا أن نقرأ إعلانا عن كتاب صدر بالإيطالية عنوانه : «أخلاقيات برشلونة» . . الكاتب ناقد رياضى . موضوع الكتاب هو إرادة الإمتناع عن المخدر والتدخين أثناء التدريب اليومى!

(٨)

الذين علمونا كان من رأيهم ان الرياضة اضاعة لوقت التلميذ المجتهد . وكنت تلميذا مجتهدا . ولذلك كان مدرس الالعاب الرياضية يقول لى : بلاش أنت يا ابنى اقرأ لك حاجة تنفعك!

يعنى لا داعى لأن اشارك فى الالعاب الرياضية . وان اتفرغ أنا لدروسى . . أما هؤلاء الذين يلعبون فهم الذين لا مستقبل لهم . . أو الذين لا أمل فيهم!

غلطان يا أستاذ . ولذلك لم اتقن لعبة واحدة اشتركت فيها . وإنما كان للعب فى غياب مدرس الألعاب الذى يرى أن الالعاب اضاعة لوقت الطالب المجتهد ، ومناسبة جدا للطالب (اللعبى) . . أى ان الرياضة تأديب وتهذيب له وعقوبة لأنه إنسان بليد . غلط يا أستاذ!

ولقد شاركت فى كل الألعاب المدرسية . ولكن اتقدم في واحدة منها . فلم يكن فى نيتى أن أكون شيئا له قيمة . . ولا كان عندى وقت ولا عندى فرصة ولا أحد شجعنى . ومع ذلك فقد كان بين اللاعبين طلبة ممتازون علما وخلقا . وفى مدرسة المنصورة الثانوية صورة لسبعة من ابنائها كانوا أوائل مصر فى الثانوية العامة . أكثرهم من اللاعبين الممتازين فكما كانوا مجتهدين فى الدراسة كانوا كذلك فى اللعب أيضا . فالاجتهاد والصبر والكفاح والإصرار على المحاولة والتفوق فى النهاية ، بشرف ورجولة كان طريقهم وهدفهم أيضا .

ونحن نرى فى الدنيا حولنا رؤساء الدول يركبون الخيل واليخوت ويصيدون الاسماك ولابد ان يجروا ساعة أو بعضها . . والرئيس مبارك يلعب الاسكواش ونرجوه أن يستمر والرئيس السادات كان يمشى ساعات حتى فى غابات كامب دافيد . فلعب الكبار راحة لهم ولنا أيضا . وإذا لم يكن الحاكم يمارس أية لعبة فأننا ندعوه لأن يفعل . . وهو يفعل لأنه كان رياضيا منذ الطفولة والشباب . والرياضة من أفضل العادات الجسمية والنفسية . مع الأسف لم أفلح فى أن تكون لى مثل هذه العادة المريحة . وهى غلطة فظيعة لا يعرف مذاقها إلا الذين تجمدوا على مقاعدهم ساعات طويلة كل يوم .

(٩)

تلقيت خطابات كثيرة من رياضيين . . أو من المتفرجين . وقد أشاروا إلى اشياء كثيرة ظنا منهم أننى خبير بأدق أسرار الملاعب والاندية والصراعات على السلطة والفلوس . . وأننى أعرف بمنتهى الدقة خبايا المعارك السياسية والإدارية وراء الفلسفة الرياضية فى مصر . . ومن الذى يحكم ومن الذى يحتكم . . ومن الطيب ومن هو الخبيث ومن الذى يملأ يديه بالفلوس ويعطى سرا وعلنا . . ومن ومن . .

والحقيقة أننى لست كذلك . . فأنا لم أذهب إلى نادى الجزيرة الذى أنا عضو فيه من ٢٥ عاما إلا خمس مرات . . ولم أدخل النادى الأهلى إلا مرتين ونادى الزمالك مرة واحدة . . ولم أر الخطيب بلدياتى إلا فى اسانسير الأهرام ولم أر صالح سليم إلا فى أحد محلات الكاسيت فى لندن .

ويوم أعطانى الكابتن لطيف تذكرتين فى المقصورة لارى نهائى كأس العالم فى لندن نسيت وذهبت إلى المسرح . .

ويوم رأيت ملك ملوك الكرة بليه فى أخبار اليوم طلبت إليه أن يقلع الجزمة لكى اتفرج على قدمه الملتوية . . مع ان العبقرية فى دماغه وليست فى رجله . .

ويوم قدمت محمد على كلاى فى التليفزيون المصرى طلبت إليه أن يعرض على المشاهدين عضلاته . . وكانت اهانة له لأنه ليس شيالا فى محطة مصر ، فليست له عضلات!! فلم أكن أعرف

الفرق بين الملاكم والمصارع واعتذرت له ولم يقبل الاعتذار وخفت ألا يذهب إلى التليفزيون فهددته قائلا : أن الرئيس عبد الناصر وكل ملوك وأمراء العرب فى انتظارك فى الاستديو . . وهم فخورون بملك ملوك الملاكمة مفخرة الزنوج والمسلمين .

ولما ابتسم دفعته أمامى إلى مبنى التليفزيون!

ويوم قررت نهائيا ان اتعلم السباحة عذبت معى الكابتن عبد الباقى حسنين والناقد ماهر فهمى وبطل الابطال أبو هيف . . ولم أتقدم خطوة واحدة لافوق الماء ولا تحته . . وان كان عبد الباقى حسنين يقسم بالله العظيم أنه يدخرنى لعبور المانش!!

فأنا أراقب وأتامل وأتمنى لا أكثر ولا أقل . وتمنيت لو كنت رياضيا .

(١٠)

الإمام الشافعى كان يقول : همتى فى شيئين الرمى والعلم . .

أى الرماية والعلم . أما علمه فمعروف وآفاقه فواسعة وأعماقه الفكرية فسحيقة . . أما روحه الرياضية فقد كان من أبرع الناس فى رمى القوس فى زمانه . وظل كذلك حتى منعه الأطباء من الرماية . لأنها تعرضه لأشعة الشمس ، والشمس تصيب بشرته بالقروح . فكان مثل كل عاشق للرياضة يذهب ليتفرج على الشبان وهم يرمون القوس . فإذا وجد واحدا قد أجاد ، فإنه يمنحه مكافأة ويعتذر عن ضآلتها . ثم يقترب منه ويقول : بارك الله فيك استمر . .

والشافعى كان يفسر الآية الكريمة التى تقول : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) بأن القوة هى الرماية .

والإمام حريص على الدين وعلى الدنيا أيضا . وهو يكره الذين يجدون فى الرياضة ما يقلل احترام الناس للعلماء والفقهاء .

وكان الإمام الشافعى فنانا أيضا . كان جميل الصوت . وكان يغنى لأصحابه . فقد تأثر بجو المدينة المنورة التى أقام فيها بضع سنوات . ورأى أستاذه الإمام مالك يغنى هو الآخر لأنه كان يحب الصوت الجميل مثل أهل الحجاز . .

وكان الإمام الشافعى شاعرا يتذوق الشعر وينظمه . ويذهب إليه الشعراء يسألونه فى أخص قضاياهم الفنية . وكانوا يحبون مجلسه : مجلس الفن والعلم والدين والرياضة .

وكان للشافعى شعر فى الغزل . . وله رأى يقول : من شبب فلم يسم أحدا لاترد شهادته . .

يعنى : من تغزل فى المحبوبة دون أن يذكر اسمها ، فشهادته مقبولة لأنه رجل شريف صادق كريم والحديث الشريف يقول : من أحب فعف فكتم مات شهيدا .

وقد جاء شاب عريس له شكوى وأعطاه ورقة عليها هذا البيت :

سل المفتى المكى هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح؟

فأجابه الشافعى ببيت آخر :

فقلت معاذ الله ان يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

فانزعج أحد تلامذته فقال له الشافعى : ان هذا شاب تزوج فى رمضان وهو حديث السن وسألنى هل حرام أن يقبل أو يعانق عروسه فقلت له : لا جناح عليك!

وعشرات الحوادث والنوادر للإمام الشافعى تضع العلم إلى جانب الرياضة إلى جوار الفن إلى جوار حسن التقدير والفهم الرقيق الدقيق لقلوب الشباب .

لا تأجيل للسلام!

من كل المناقشات عن يهود السوفيت المهاجرين إلى إسرائيل ، لا نجد حلا أو اقتراحا بالحل .

روسيا قد اعطت كل مواطن الحق فى ان يسافر إلى أى مكان يراه ، فلا شأن لنا بذلك واليهود والمسلمون فى ذلك سواء . . إسرائيل اعطت الحق لكل يهودى ان يهاجر إليها ـ فلا شأن لنا بذلك ـ كما أعلن سفيرنا محمد بسيونى فى مؤتمر صحفى فى تل أبيب . .

وإذا كانت الدول الأوروبية والأمريكية رحبت بهجرة اليهود إليهم ، فلا شأن لنا بذلك أيضا .

وأن أمريكا تقفل بابها أو تفتحه لهجرة ثمانين ألفا فتلك سياستها ، ولا نستطيع ان نتدخل فى شئون أية واحدة من هذه الدول .

ولكن المطلوب هو إلا يقيم هؤلاء اليهود المهاجرون فى الأرض المحتلة التى نتنازع عليها والتى سوف تعود إلى أصحابها غدا أو بعد غد ـ لاخلاف بيننا جميعا على ذلك!

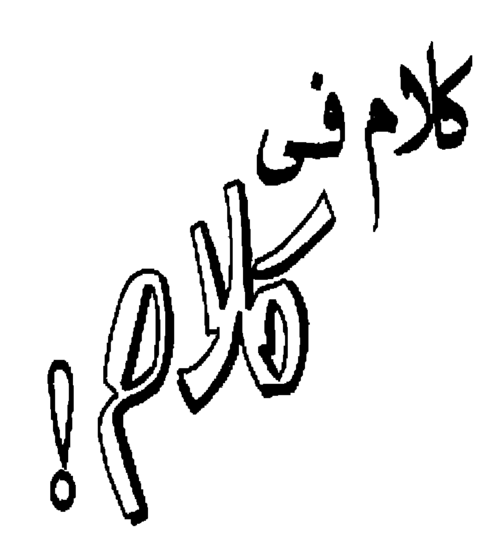
ويؤكد رؤساء الأحزاب الإسرائيلية كل يوم : أن هؤلاء المهاجرين لا يمكن ان يعيشوا فى الأرض المحتلة القلقة ، فليس معقولا أن

يهاجروا من روسيا لكى يموتوا فى فلسطين . إذن فسوف يعيشون ـ إن عاشوا ـ فى إسرائيل . ومع ذلك فزعماء إسرائيل يؤكدون أنهم لن يسمحوا للمهاجرين بأن يقيموا فى الأرض المحتلة . ولكننا لا نصدق مايقولون .

إذن ما الحل؟ من الذى يضمن لنا صدق هذا الذى يقولون . نحن لا نثق فى أمريكا ، فهل نثق فى روسيا التى اطلقت هؤلاء اليهود . هل نثق فى روسيا التى لن تشترك فى بحث القضية الفلسطينية إلا إذا أعادت علاقاتها الكاملة مع إسرائيل ، وإلا إذا هبطت طائراتها فى تل أبيب ـ أى من روسيا إلى إسرائيل مباشرة!

لابد ان يكون عندنا تصور لما يجب عمله من صدق ما يدعيه زعماء إسرائيل من ان يهود روسيا يقيمون على أرض إسرائيل . هذا هو موضوع البحث . وهذه هى القضية . وليس أى كلام خطابى تهريجى يقال استنكار لهذه الهجرة دون اقتراح حل مقبول من الجميع .

لنلعن هذه الهجرة ولنلعن البريسترويكا ـ إذا شئنا ـ ولكن لابد أن يكون لدينا تفكير عملى واضح يمكن تحقيقه ولايكون سببا فى تأجيل عملية السلام من أولها لآخرها!



نريد ان نتساءل وأن نتفق فيما بيننا ماذا يحدث لو أن دولة أمريكية أو أوربية ـ وأقول مثلا مثلا ـ قررت ان تستوعب بعض اليهود المهاجرين من روسيا؟ فماذا يكون موقفنا من هذه الدولة؟

نفرض ان دولة كالأرجنتين وبها مليون يهودى ونصف مليون من أصل سورى ولبنانى ورئيس الدولة كارلوس منعم من أصل سورى وأخوه سفير لبلاده فى دمشق ـ قررت أن تستوعب عددا من اليهود . وأقول نفرض . . لأن الأرجنتين دولة تعبانة جدا اقتصاديا ولا تعرف كيف تأكل وتشرب . . نفرض أنها قررت أن تستوعب بضعة آلاف . وقالت : إن الغرض من هذا القرار هو تخفيف الضغط على إسرائيل حتى لا تدفعهم إلى الأرض المحتلة . أى ان هذا القرار هو خدمة للعرب ، هل يوافق العرب على هذا القرار؟!

هل يجدون فى القرار الأرجنتينى موقفا وديا من العرب ، وليس موقفا إنسانيا من اليهود؟

ان مثل هذا الموقف الواضح من العرب سوف يشجع دولا كثيرة على ان تستوعب هؤلاء اليهود ـ هذا إذا قرر اليهود ألا يذهبوا إلى إسرائيل نظرا لظروفها الاقتصادية والأمنية الصعبة جدا .

هل ننقلب على جورباتشوف الذى أضاع علينا جميع أصوات الدول الشرقية التى اعادت علاقاتها مع إسرائيل وسوف تدفع لها تعويضات رغم ظروفها الاقتصادية الصعبة . . هل نتهم جورباتشوف بأنه يهودى صهيونى وكذلك زوجته ووزير خارجيته وأنه لذلك قد قلب الدنيا من أولها لآخرها من أجل توطين مليون يهودى فى إسرائيل؟ وإذا قلنا ذلك والعالم كله يعلم أنه لا صهيونى ولا يهودى ، وإنما ثائر عظيم ليس له نظير فى التاريخ ، ألا نغامر للمرة الألف بعقلونا الخرافية والتخريفية . . ألا نحزن على أنفسنا لأن العالم لم يعد يحترمنا أو يصدقنا؟ . .

وإذا كانت قصة هجرة اليهود قد وحدت بين العرب من كل لون وحجم ، نرجو الله ألا تكون هذه الوحدة كلاما فى كلام وتضيع هذه الفرصة كما ضاعت فرص قبلها ، بعدد حبات المسبحة!!

ياحاجى !

من عشرين عاما ركبت السيارة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة الطريق طويل جدا . كان يقال لنا أنه مئات الكيلو مترات . . وكنا نحس أنه الوف فالطرق غير مرصوفة . تتسع وتضيق وتقطعها السيول . وتتحول الأرض إلى وحل . . ونجدها تجربة جديدة ان ننزل وأن نتوضأ من ماء السيول ونصلى على الرمل المغسول بماء السماء . . وكنا نجد متعة خاصة فى أن نتوقف عند أكشاك من الصفيح تطالعنا منها وجوه باسمة دائما . . تنادى : ياحاجى . . أى يا حاج ونقول : نعم . . ونفهم أنه مقهى . . ونجلس ونشرب الشاى بالنعناع . ولم نسأل إن كانت الأكواب مغسولة . . أو ان أحدا سبقنا فشرب منها . . وإذا وجدنا مقعدا جلسنا أمامه . . وإذا وجدنا سهلا تساءلنا إن كانت قد دارت هنا معارك الرسول عليه السلام . .

وقبل ذلك نزلنا فى فندق فى مواجهة الحرم . . وكان الفندق بلا أبواب ولا شبابيك . لم يتم . فأشترينا المراتب وفرشناها على الأرض . ونمنا ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة . . ونام واحد منا فى البانيو . .

هل هى السعادة التى أحسسنا بها؟ هل هى الفرحة بأننا تممنا كل شعائر العمرة؟ . . لقد خاف صديقى عثمان العبد مستشار

أخبار اليوم أن نموت من الضحك . . ولما عدت أفكر فى الذى كان يضحكنا لم أجد شيئا يدعو إلى ذلك . . وإما هى الراحة العميقة التى جعلت أوزاننا أخف وهمومنا أقل وبهجتنا أشمل .

وسألنا المصريين الذين قابلناهم فى شوارع المدينة عن فندق . . أى فندق فأخذونا إلى أى فندق . . وكانت الغرف عنابر كل عنبر فيه عشرون سريرا . حمد لله وشكرا . فالنوم لا يهم ولكن اليقظة . . السعى . . الحركة . . الاتجاه إلى الحرم النبى . . والصلاة . . والصلاة . . والعودة إلى الصلاة . . فكل الطرق تؤدى إلى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام . وكفى بذلك شرفا وأجرا وسعادة .

وأذكر أننى ضللت الطريق إلى الفندق . . فقال لى أحد المصريين : إذن أنت تسكن البيت الأزرق!

وهو يشير إلى الفندق المضاء بألوان النيون الزرقاء . . ولم أكن قد لاحظت ذلك! وإنما وجدت السرير والصحبة والنوم وصوت المؤذن الشجى الجميل يجىء إليك من الباب والنافذة ثم أنه يخرق الجدران والقلوب مهما كانت من حجر!

ثم ضاع الطريق!

(١)

العبث ليس هو اللعب . . لأن اللعب علم له أصول وقواعد . كرة القدم : لعب . ولكن لها قوانين ولوائح . ولها خبراء . والملاعب هى المحاكمة العلنى . . والحكم هو القاضى الذى لاراد لقضائه .

والجمهور يتفرج ولا يتدخل . . وكأنه ليس موجودا . . والحكم نفسه يجرى بين اللاعبين . . وكأنه ليس موجودا . . إنه مثل القوانين : موجودة ولكن احدا لا يراها . . فكل قوانين الجاذبية تنطبق عليك . ولكنك لا تدرى بها . . والحكم هو العقل الرياضى وهو الضمير الاخلاقى وهو الحقيقة الخفية وكل هذا لعب . ولكنه ليس عبثا .

فالعبث له معنى آخر : فالعبث هو شعورك بأنه لا معنى لأى شئ . . ولا قيمة . . ولا قاعدة . . ولا أمل فى أن يكون لكل الذى تقول أى مدلول . . أو أى جدوى . . مثلا : أنا أكتب لكى تقرأ . وأنا أمضى فى الكتابة لأن كل هذه الكلمات التى أستخدمها لها نفس المعنى عندك . . فاستمرارى فى الكتابة هو استمرار فى الحديث إليك . وأنا أستمر لأنك تتابع ما أقول . وأنت تتابعه لأنك تفهم . وأنت تفهم لأن كل هذه الكلمات من أولها لآخرها لها

نفس المعنى : عندى وعندك . . ولكن إذا احسست انك لا تفهم . ولا تريد أن تفهم . وانني لا أفهم ولا أحب أن أوضح . وأنه لا معنى لأن أقول ولا معنى لأن تقرأ . . وأننا نحن الاثنين معا ، نتقارب ولا نتكلم . . أو نتكلم فى نفس واحد فلا أنت تسمعنى ولا أنا .

وكأننى اتكلم الفرنسية التى لا تعرفها وأنت تتكلم الروسية التى لا أعرفها . ومع ذلك فأنا مصر على أن اتكلم وأنت أيضا . . والمتفرجون يتفرجون علينا ولا يفهمون . . ومع ذلك هناك أصرار عام على أن يظهر الممثلون وأن يحضر المشاهدون؟!

هذا هو العبث . . والمعنى : ان الناس عندهم شعور قوى بأن احدا لم يعد قادرا على التفاهم مع احد . ورغم ان الناس كثيرون فى كل مكان فلا أحد يشعر بأحد . . ولا أحد يهمه أحد . فالناس يكلمون أنفسهم . ويمشون فرادى والمسافات بعيدة . بين فمى واذنك ، وفمك وأذنى . . بين الجماهير الصامتة المنعزلة الحزينة التى تسير أثناء النوم وتتكلم!

إنها إذن خيبة الأمل على المسرح التى تصور إحباط المتفرجين!

(٢)

تغنى نيللى وتقول لايمان البحر درويش الذى قرر أن يهرب ان يهاجر . . ان يترك مصر بحثا عن أى مكان آخر أكثر خيرا وأمنا :

حرام عليك أنت شاب ولكل ضيقة ألف باب والدنيا قد لاتحتمل ولكنها ما هيش خراب!

ويقال لايمان البحر درويش أيضا :

الفعل الفعل الفعل هوه اللى ح ينفعنا بالفعل ف دنيا زى الغابة مليانه بالكابة وعينى ع الغلابة فى الأيام الهبابة لا كلام ياصاحبى ينفع ولا بتنفع كتابه!

ولكن مثل هذه المنشورات فى هذه الأوبرا تنفع وقد نفعت . .

وهى آخر كلمات شاعر قال كثيرا وجميلا وطويلا . . وقد نفعت كلماته . ولكنه كان يتصور أو يتمنى ان تنفع أكثر . . وتعجل لهذه النهاية . . ولكن المجتمع ابطأ من الشعراء . . وأقل أحساسا وعمقا . . ، وقد وقع لنا وعلينا وبيننا مثل هذه المآسى التى عرضتها هذه الأوبرا . . حدث . . ولكن الأفكار لا تدخل السجون ، أصحابها فقط!

يقول أحد المفكرين وقد رأهم يحرقون كتبه : أحرق أى كتاب ، ومائة مسرحية وألف قصيدة ـ سوف يتلاشى الورق ، أما الأفكار فهى مثل الدخان يعلو ويتصاعد وينتشر ويذهب بعيدا!

يقول فولتير أبو الثورة الفرنسية وكل الثورات : اعرف كتبا كثيرة تركت أثرا عميقا فى الناس ، ولم أسمع عن كتاب واحد اساء إليهم!

يقول برناردشو : نريد ان نقول يجب ان نقول . . إن الحقيقة كئيبة . . ولكن لا يهم ان تقولها كئيبا أنت أيضا . . أن الاطباء أقل الناس بشاشة فى وجه المرضى لأن الموقف جاد!

وهذا الحوار بين أديب فرنسا مارسل بروست وأحد تلامذته : أنت غضبت؟

ـ نعم يا أستاذ

ـ يجب ان تبقى كذلك . . فالذى لا يغضب بروست وأحد تلامذته : أنت غضبت؟

بصراحة إن مصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى يستطيع فيه أى إنسان ان يقول ما يشاء ـ ولكن أحدا لا يسمعه . .

فأرجو أن تذهب وتسمع وتستمتع هذه المرة!

(٣)

فى فبراير سنة ١٩٦٣ كانت أول أعمال جلال الشرقاوى مخرجا مسرحية «الأحياء المجاورة» بطولة حمدى غيث وسناء جميل ـ أثنان فقط . المسرحية لى . . وقد تردد فى إخراجها كل الفنانين . وكان جلال الشرقاوى جريئا مقتدرا . وكانت هذه الجرأة فى تحريك بطلين ثلاثة فصول وحدهما بايهام المتفرجين طول الوقت بأن آخرين سوف يظهرون على المسرح أهم عناصر نجاحها . . وبعدها اخرج للمسرح والسينما ٥٦ عملا فنيا من كل لون ومدرسة . . فهو كمخرج راسخ القدم . . وهو ممثل وهو أستاذ . .

وكأنه فى حاجة إلى أن يؤكد لنفسه ولنا وللحركة المسرحية أنه مازال ذلك الفتى الجرىء وذلك المقدام الذى سبق وغرس عملا مصريا على أرض جديدة وأقام صرحا شعريا غنائيا مسرحيا سينمائيا ووقف ينتظر . وجاءه الألوف يصفقون للقدرة والشجاعة واحترام الإنسان لفكره وفنه وجمهوره .

وقد سافر جلال الشرقاوى يدرس التجربة التشيكية فى مزج المسرح بالسينما : فالممثل يظهر على الشاشة ويكمل حركته على المسرح والعكس . . والشاشة الكبيرة أربع شاشات متداخلة وتتخذ ١٨ شكلا وتدار بعقول الكترونية فى غاية الدقة والانضباط ولذلك فهذه الأوبرا هى العمل المسرحى الوحيد فى مصر الذى لا يزيد دقيقة ولا ينقص ثانية واحدة . فكل شئ متزامن بالدقيقة والثانية . . وهذا يحتاج إلى جهد جبار هذه الأجهزة اشتراها جلال الشرقاوى بثلاثة أرباع المليون . واستغرق اعداد هذا العمل ١٨ من يونيو سنة ١٩٨٦ .

وكان اختيار نيللى سيدة الاستعراض الغنائى عنصر نجاحه الأول ، فهى محبوبة الصورة ، لطيفة الصوت ، ناعمة الأداء . . واختياره للمطرب الشاب إيمان البحر درويش حفيد الثورة الغنائية عنصرا آخرا للنجاح فهو جذاب الحضور وأمل الغناء . . واسعدنا الصوت الحر الشعبى للسيدة زينب يونس والمطرب رضا الجمل ، و«المطرب العالمى» الأوبرالى حسن كامى . .

هذه الأوبرا بداية لاتجاه جاد للتحول إلى المسرح الغنائى . وللتحول عن التهريج المهين الذى طال على المسارح وتطاول على كل أمل فى نجاتنا من السلبية والعبثية!

(٤)

سافر الفنان الغنائى الموسيقى ابن البلد الجدع محمد نوح إلى أمريكا مع صلاح جاهين . عاشا الواقع المصرى الحزين والواقع الأمريكى الباهر . . واحتشدت المعانى والألحان فى وجدان محمد نوح . . واستعد للأغانى التى سجلها فى لندن . . ومحمد نوح فنان مثل حديث العهد بالتحلين ولكنه درس أربع سنوات فى أمريكا . .

وكان محمد نوح ظاهرة غنائية عابرة فى السبعينات حتى أصبح موضة يغنى فى الفنادق وفى الأفراح وفى الجامعات والملاعب ويقول :

مدد مدد مدد

شدى حيلك يابلد . .

وكانه فى كل المناسبات السعيدة يوقظ الناس فلا ينسون ان بلدهم فى حاجة إلى أن نشد حيلنا ونصلب عودنا ونقف من أجل الحرية والخلاص من الاحتلال والظلم . . وكان يغنى أيضا : .

يابلدنا ياعجيبه

فيك حاجة محيرانى

نزرع القمح بصعوبة

يطلع القرع ف ثوانى!

ودخل السجن وأخرجه الرئيس السادات واعتذر له وأهداه قفصا من الرمان وأثوابا من حرير أخميم!

وفى هذه الأوبريت عبارات موسيقية جميلة فخمة . . ساعده على ان تكون فى غاية الابهة الأوركسترا السيمفونى فى لندن . . وقد استخدم كل الوسائل العلمية الحديثة فى الضبط والربط والمصاحبة حتى كان له هذا الزواج السعيد من الشعر والغناء والأداء والرقص والحركة المسرحية ـ تحقق له ذلك فى سنوات من العمل الشاق ليلا ونهارا .

وكان من الممكن ان تكون هذه الأوبرا «شدى حيلك يابلد» بدلا من «انقلاب» الذى اختاره المخرج جلال الشرقاوى فالمخرج أرد ان يؤكد أنه انقلاب مسرحى سينمائى غنائى راقص ثورى يحترم الشاعر والموسيقار والمخرج والممثلين والمتفرجين أيضا . . وان لم تكن هذه الأوبرا انقلابا فنيا فكريا شاملا فهى دعوة إلى ذلك ـ وهى دعوة فخمة واستمرار متطور لما بدأه سيد درويش . . وكأن المخرج أراد أحياء أسم درويش فأتى بحفيده يغنى ـ فالفن متصل والتطور متواصل والبقية تأتى!

(٥)

فهذه الأوبريت انقلاب هذا الموال الشعرى الغنائى يحكى قصة ليلى وقيس . . عاشقين فى عصرنا الحديث . . عاشقين وسط اعاصير السياسة والخوف والقهر والرغبة فى الهرب إلى بلاد بعيدة . . ليعيشا للحب وللندم على انهما هربا . .

وبذلك يتعمق لديهما الحب والوحدة والعار ـ فقد عاشا وهربا ولم يفعلا شيئا . . لم يؤكدا كرامة وحرية الإنسان . . فكأن مصر ما اخرجت ولا أنبتت ولا أعطت شهادة ميلاد تحولت فيهما وبهما إلى تصريح بالدفن !

هى : ليلى عثمان الهمزانى (نيللى) .

وهو : ابن عمها أحمد معروف الهمزانى (ايمان البحر درويش) يقول :

متسدده فى وشى وأنا عبقرى موهوب نبى لكن قومه بيحدفوه بالطوب ويقول أيضا :

عينى على الغلابة فى الأيام الهبابة لاكلام ياصاحبى ينفع ولا كتابة .

وقيس هذا غاضب على حال بلده . . والبوليس يعتقله . واحد السفراء يتزوج حبيبته بالاكراه ويقول قيس : اسمع خطاوى أقول دى هيه اشم عطر أقول دى جايه .

وكل نور شفته خدعنى وغشنى وكدب عليا .

كله سراب وانتى حقيقة وكله مدان وانتى بريئة

كل بشع وانتى رقيقة كله ظلام وانتى مضيئة

وأرق شئ فى الدنيا ديه وأحلى ما شافت عنيه :

خدك . . رقبتك . . شفتك شعرك جبينك قصتك .

وحدادى حايمة مالها عد

والخوف والقهر والظلم يدفعه إلى اليأس . . واليأس يدفعه إلى العنف . . والعجز عن تحقيق ذاته يدفعه إلى أن يتوارى وراء لحية وعمامة . . وإلى ان يتربص . . ولكن وسط الظلام يشع النور وسط الموت يتحرك جنين . . والشعر والموسيقى والاخراج ورشاقة نيللى وحيوية وشباب إيمان البحر درويش وسعادة الناس بهذه الأوبرا التى هى (سفينة نوح) فى طوفان العبث واليأس وسوف تصبح منارة انقاذ ومصحة عقلية ونفسية وفنية للملايين ــ لابد من الملايين!

(٦)

وماتت فى مصر مواهب كثيرة لأسباب مختلفة . وكأنها تؤيد صلاح جاهين . والذى قاله توفيق الحكيم على فراش الموت لم يختلف كثيرا عن الذى قاله صلاح جاهين . . والفنان الكبير صلاح طاهر وأنا شاهدان على ذلك والذى قاله الفنان الأثرى كمال الملاخ هو بالضبط ما قاله صلاح جاهين : لقد مات الملاخ يأسا وحسرة .

فى هذه اللحظة اتذكر سنوات عجيبة من بداية القرن التاسع عشر : اشبه بما نحن فيه واصدق وأعمق وأعنف .

ففى سنة ١٨١٨ ظهر فى ألمانيا كتاب للفيلسوف شوبنهور اسمه : (العالم كارادة وفكرة) يسخر فيه من أى أمل فى التقدم ومن إيمان الإنسان . . وفى ١٨٢١ مات الشاعر الانجليزى كيتس كمدا . . وفى سنة ١٨٢٢ غرق الشاعر شيلى دون ان يحاول النجاة . . وفى سنة ١٨٢٤ مات الشاعر بيرون من الصرع سعيدا بالفرار من عالم شديد المرارة ومات القصاص الحالم هوفمان فى نشوة وغيبوبة . . وفى سنة ١٨٣٥ نشر الشاعر دى ميسيه اعترافات فتى القرن يصف دنيا مهدمة بلا أمل وفى سنة ١٨٣٧ مات شاعران : يوشكن أمير الشعراء الروسى كأنه انتحر والشاعر الإيطالى ليوبردى بلبل اليأس الأوربى . .

ولم يحدث فى مصر ما حدث فى أوروبا بقوة وبسرعة وعمق . . فقد استعادت الروح الأدبية والفلسفية والعلمية والفنية قوتها فظهرت أعمال الأدباء هيجون وإبسن ودكنز ودستويفسكى وتولستوى وبلزاك واستندال وهينة والناقدين سانت بييف وتين . .

والعلماء الكبار يجمعون مادة للثورة القادمة مثل دارون الذى اقبل على الحياة يعرف مسارها . . وفيلسوف التاريخ شبنجلر يعيد صياغة الحياة الإنسانية . . وعلم الآثار الفرعونية بترى يؤكد ان الحضارة الغربية تحتاج إلى أربعة قرون لكى تعاود حيويتها وجديتها . .

صحيح أن الحرب اشاعت المرارة والندم . . ولكن الحرب جعلت لدى الناس رغبة عميقة فى اختيار ما يصلح لاسئناف الحياة . . وهذا الاختيار هو الزاد الذى تستعيد به الشعوب استئناف السير ولابد من تشجيعها على اختيار الزاد والهدف .

(٧)

الشعراء أكثر الناس عذابا ـ لأنهم أكثر الناس حرية وحساسية . فهم يرفضون القيود والتوصيفات والتسكينات والأرقام . . وهم أكثر الناس اهتزازا للريح . . اتجاه الريح . . وقد يقفون في وجه العواصف وهم اضعف من النسيم . لكن فى وقوفهم ضد الريح تأكيد لذواتهم ورفض لكل القوى . . الإنسان وقوى الطبيعة . . فالله قد خلق مواهبهم باهرة محرقة كالشمس . . وخلق أجسادهم كالقش الهش . . ومن هذه القوة وهذا الضعف تتولد طاقاتهم الإبداعية . . يغنون ويرقصون على النار!

وكان الفيلسوف الشاعر نيتشه يقول : يجب أن نقيم أكواخا من ورق عند فوهات البراكين . . وإذا احترقت اقمناها من جديد . . إننا اخترنا هذا المكان حتى لا نتوقف عن البناء . . عن التحدى . . والفناء!

وكان الشاعر الغنائى والرسام الساخر صلاح جاهين هذا الطراز من الناس . فقد كان متعدد المواهب . . يغنى بالكلمة ويذبح بالخط ويحاول ان يمثل وان يضحك ـ كأن لوحاته الساخرة لا تكفى . . ويرقص كأن اغنياته ومواويله لا تكفى وعاش صلاح جاهين فى قلوب الناس . . ولكنه اختار ان يموت . . فالذى يراه فى الناس وبينهم ليس هو الذى أراد . . ثم أنه أضاف إلى فوضى النا س معنى وهدفا وبروازا . . ولكن الناس لم يضيفوا إليه شيئا . . لم يخففوا عنه . . فكان الموت من ابداعه أيضا!

وصلاح جاهين الفنان الشاعر المتفجر كان أصدق صورة لعصره . . قال كثيرا وغنى . . ورسم واضحك وابكى . . وكأنه قرر أن يملأ عينيه من الدنيا الجديدة ليودع الدنيا القديمة فسافر إلى أمريكا ورأى فى أمريكا كل الذى ليس فى مصر : القوة والسطوة والثروة والثورة والأمان والإيمان بالنفس وبالمستقبل . . فى مواجهة كل ذلك وجد على لسانه الضعف والهوان والفقر والنكسة والخوف واليأس . . وفى أمريكا انتهى من أوبريت «انقلاب» قال حكمته ومضى . . ولم يشأ أن يجعل موته دعوة عامة لكل الناس . وإنما وضع النقطة الأخيرة فى الأوبريت وفى حياته . فلم يعد لديه المزيد يغنيه . . وكان ذلك موقفا نهائيا شخصيا . . لأنه متفائل!

(٨)

والآن قد بلغ المسرح أعلى درجات العبث . . مرحلة العبث العابث . أى عندما أصبحت الحرية المطلقة نوعا من السخافة المطلقة . . ففى مسرحية كاليجولا لفيلسوف العبث كامى نجد الأمبراطور قد تضخمت حريته المطلقة فأصبح استخدامه لها مضحكا مبكيا . . فقد تحولت الحرية إلى كرباج إلى صفارة يطلقها ليقف الشعراء على رجل واحدة ثم يقفزون إلى الهاوية .

والمعنى أن يكون الأمبراطور قمة فى السخافة!

وأذكر أن رئيس وزراء إسرائيل اسحاق شامير شكا لى من هجوم الصحف المصرية على إسرائيل . فقلت له أن صحفيا إسرائيليا ذهب إلى المسارح المصرية . فوجدنا نهاجم كل رؤساء جمهورية مصر ونضحك . . وكل الوزراء وكل القيادات . لأن الكاتب والمؤلف والممثل والمخرج أحرار تماما . . واننا تجاوزنا كل الحدود والقيود والسدود والأصول . . أننا أحرار . . حديثو العهد بالحرية المطلقة . . أى حديثو العهد بالحرية التى تبدو سخيفة . فلم يعد لها هدف ـ أذن لقد بلغنا آخر مراحل العبث!

أى لا يحق لأحد ان يحاسبنا من خارج مصر ، كما أن أحدا لا يحاسبنا فى داخل مصر . . فالهذيان عام شامل . .

وفى العلاج النفسى يرى الطبيب ان المريض يجب ان يتمدد وان يسترخى وان يقول كل ما يخطر على باله بما فى ذلك رأيه فى الطبيب وفى الطب وفى العلاج وعدم جدواه . . وان الطبيب

نصاب أفاق . . وطبيب العلاج النفسى كطبيب الولادة الذى اعتاد ان يسمع من السيدة التى تلد لعن أبيه وجميع الممرضات . . أنها تلعن من شدة الألم . . والمسارح تلعن وتضحك من شدة الألم . . أما الألم فهو ان يكون الإنسان حرا قد ضاق بحريته .

ولا يدرى ما الذى يفعله بها ، فيبددها كيفما شاء ومعها احترامه لنفسه ولجمهوره وللعقل والمنطق . . بصراحة لقد أصبحت هذه الحرية مؤلمة . . لأننا نستشعر الإهانة والهوان ونحن نرى المسرح قد انحدر وانحط . . ولم نعد نعرف ما هى الحدود الفاصلة بين الرصيف والمسرح والمتفرج والممثل والمؤلف . . لقد استغرقنا «العبث العابث» ، ولابد ان نفيق من الهذيان!

(٩)

وكما ظهرت الوجودية بعد الحرب العالمية الثانية تؤكد انّ الفرد حقيقة وليس وهما ، وأن الدولة هى الوحش الذى يأكل حرية الفرد . . وان المذاهب الكبرى استباحت دماء الأفراد : النازية والفاشية والشيوعية . . ولذلك فالوجودية هى محاولة فلسفية روائية مسرحية لرد اعتبار الإنسان بعد ان بددت كرامته وأمله فى تعويض سخى من الأجيال القادمة وغفران لكل خطاياه .

مع الوجودية ظهرت العبثية أيضا . . لتقول : ان المذاهب الشمولية قد اسفرت عن ضياع الفرد . . حق الفرد . . وحريته . . ومعناه ومدلوله . . الكبير ضاع والصغير أيضا . . كله راح . . حتى هذه الكلمة ضاعت من معناها ، وضاع منها معناها . .

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت السريالية فى التصوير والنحت وفى الأدب أيضا . . وكان الهدف هو أن يعبر الفنان عن احساسه هو شخصيا بالعالم . . بعالمه هو . . وليس بعالم كل الناس الذى تصوره الكاميرا . . فالكاميرا تسجل لحظة . ثم تخلد هذه اللحظة . فالمصور ــ إذن ــ كان كالرسام ينقل الواقع كما هو . . والرسام الأعظم هو الأقرب إلى المصور . . أى الرسام يجب أن يهدر شعوره الخاص وان يقلد العدسات!

كما أن الرسامين السيراليين قرروا أن يرتادوا مستويات شعورية خاصة . . شعور الفنان عند يقظته من نوم ثقيل . . عند الألم . . عند النشوة . . عند الدوخة . . عند اليأس . . عند الغرور . . مثلا افرض أن ضرسى يوجعنى . واريد أن أرسم شعورى بذلك . .

سوف ارسم وجهى وأنا موجوع الضرس . . سوف اجعل الوجه متورما فوق الضرس . . وأما الجانب الآخر من الوجه فلا وجود له . . وكذلك العين والأنف والعنق والرأس . . فأنا أرسم نفسى من داخلى . . لا انظر إلى وجهى فى المرآة . .

ثم حدث فى السريالية ما حدث فى العبثية وفى الوجودية : لقد دخل الساحة المسرحية من لا يعرفون الرسم أو الكتابة أو التفكير . .

ولذلك كانت اللوحات والصور والتماثيل بشعة أو غير متناسبة الخطوط والأحجام . . فالعين تأكل الوجه ، والفم يبتلع الخدين . أو تجىء الأذرع أكبر من السيقان . . والأنف أضخم من الرأس ـ كل إنسان حسب شعوره . . حسب حالته ثم صدى كل هذه الدرجات الشعورية فى نفسه!

(١٠)

أذكر أننى ذهبت مع د .طه حسين لحضور مسرحية «الأيدى الناعمة» توفيق الحكيم بطولة يوسف وهبى . وقد ضحك طه حسين كثيرا . ولكنه لم يشأ أن يسكت عن «تقاليع» توفيق الحكيم . وكيف أنه لابد أن يخرج من تقليعه ليدخل فى واحدة جديدة . . وهكذا يضمن توفيق الحكيم أن يكون تحت الاضواء وان يلتف حوله الشباب باعتباره أكثر شبابا منهم . .

ولما ظهرت مسرحية «ياطالع الشجرة» وجدها طه حسين فرصة لكى يهاجم توفيق الحكيم . . فيقول : أولا ليس هذا جديدا فقد عرفنا من الأدب الفرنسى أدباء غامضين مهوشى التفكير من مثل فيرلين ولوترياهان ورامبو . . وكانت لهم ظروفهم النفسية التى تجعلهم فى حالة من الهذيان والتهويم حول المعانى دون احتوائها ـ ولكن ما عذر الحكيم؟

وطبيعى جدا ان يهاجمه الاستاذ العقاد . وأن يلتفت العقاد إلى ان دعاة العبث فى فرنسا كلهم من الأجانب الذين يجدون صعوبة فى التفاهم باللغة الفرنسية أو فى التوافق الاجتماعى : يونسكو رومانى الأصل . . وبيكيت إيرلندى وإريال أسبانى . . ويقول العقاد أيضا : ليس هذا العبث دليلا على أن الناس غارقون فى العجز عن الفهم ، ولكنهم المؤلفون والأدباء . . وبدلا من انقاذ الناس بالعقل ، فإنهم يدعون الناس إلى طوفان واحد . . ليموتوا جميعا!

وكان من رأى العقاد ان العالم الفلكى جاليليو قد استحق العذاب من الكنيسة لأنه عندما قال ان هناك بقعا فى الشمس . . فقالوا : بل البقع فى عينيك!

وكان على حق وكان وحيدا . . وكانوا على باطل وكانوا كثيرا فغلبوه . ولكن التاريخ انصفه . ولذلك كان على توفيق الحكيم وكل المفكرين ان يتمسكوا بأن البقع فى رؤوس الناس . . وأنهم وحدهم القادرون على التنوير والانقاذ من الضلال . .

وكان العقاد وطه حسين ، هذا ابن المنطق التحليلى الانجليزى وهذا ابن التنوير الفرنسى ، حريصين على أن يدفعا الحكيم بعيدا عن الضلال العام . . وان يقوم بدور نوح فينجو المسرح والشباب من الطوفان . .

ولكن توفيق الحكيم لم يفعل ـ وإن كان قد ندم على ان شبابا كثيرا قد سار وراءه دون فهم . .

(١١)

كتب الشاعر الإيطالى دانتى اللجيرى على باب جهنم هذه العبارة ، وكأنه كتبها على مسارح مصر فى الستينات والسبعينات : أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة!

فى النجاة من هذا العبث الذى يضاعف حزننا على انفسنا ، ويضاعف سخريتنا من انفسنا . . فأنت تدخل مسرح (العبث الضاحك) وتخرج أخف وزنا . . والحقيقة أنك لست أخف وزنا وإنما أنت أقل قيمة!

فماذا رأيت؟ لقد رأيت أسوأ ما فى الناس وبينهم فى يومهم وغدهم . .

وما الذى أدى إليه زحام الناس فى صالة هذه المسارح؟ أدى إلى زيادة الحرية الفاضحة نفسيا واجتماعية واخلاقيا وسياسيا . . فلم يعد المسرح مثل الحمامات الشعبية . . تدخل تتعرى وتغتسل وتخرج نظيفا مستريحا . . وإنما المسرح يزغرغك بسكين يوجعك ويوقعك ويبكيك ثم إذا بك تضحك على نفسك وتقول لنفسك : كيف استدرجوني وسخروا منى وأخذوا فلوسى . . أننى اضحوكة!

وأصبح المسرح مثل البار . . تدخله بكامل قواك العقلية لكى تفقدك . . وتخرج سعيدا بأنهم ضحكوا عليك وابكوك . . ثم صفقت لهم فى النهاية! لقد رأيت فى إحدى المسرحيات ممثلا يقول فى مواجهة الجمهور : أنت ياحمار!

فيرد عليه واحد : نعم ياوالدى! فيرد الممثل : مش أنا طلقت الست الوالدة؟!

أى أنه هو أيضا حمار . ويضحك الجميع لهذا التأليف الفورى من الجمهور . .

وفى اليوم التالى يتضاعف عدد الحيوانات وتتزاحم بين الممثلين والمتفرجين . . وكل ذلك يدل على أن المسرح قد انتقل من العبث العابس إلى العبث الضاحك إلى (العبس العابث) ـ أى إلى العبث الذى لم يعد صورة وواقعا روحيا وفنيا . . وإنما تحول إلى عبث يسخر من السخرية . . إلى عبث يضيق فيه الممثل بالجمهور والجمهور يضيق فيه بالممثل .

وفى إحدى المسرحيات وقف متفرج يقول : يلعن أبو كل من يدخل هذا المسرح!

ولا أستبعد أن يكون قد عاد إلى المسرح ليلعن المتفرجين والممثلين على مسمع من الجميع . .

(١٢)

وبين العبث العابس والعبث الضاحك : توقف الإصلاح بكل اشكاله والوانه واحجامه وأهدافه .

فالمسرح يعكس صورة المجتمع . . أى الممثلون يظهرون فى ملابس المتفرجين . وينتقدون العيوب . ويشعر الناس أنهم قد انفضحوا أمام أنفسهم . وهذه الفضيحة هى التى تجعلهم يشعرون بالعار . وهذا العار هو الذى يدفعهم إلى اصلاح أنفسهم . . فالجبان والبخيل والخائن والمتردد والجاهل والظالم كل هؤلاء يجب أن يجدوا علاجا . حتى لا يكونوا سخرية لأقرب الناس وكل الناس!

وهذا الذى اسمه «التطهير» بلغة المسرح الاغريقي ـ أى تشخيص حال المريض ليقوم هو بتطهير نفسه من هذا المرض . . فالمسرح ـ إذن ـ هو المستشفى . . أو هو الحجر الصحى . .

ولكن فى أيام «العبث العابس» لم يستطع الناس أن يتحرروا . فلم يكن ذلك مستطاعا . فقد كان فى وسعهم فقط أن يرمزوا ويلمزوا . . وكنا نرى ذلك شجاعة واجتراء عظيما وانتحارا . . وكنا نصفق . . وكان التصفيق نوعا من لطم الكف بالكف . . فنحن نعرف ما الذى ينتظر المتهورين فى زمن القهر والعهر!

وفى أيام «العبث الضاحك» لم يذهب المتفرجون إلى أبعد من الضحك داخل المسرح وينسون كل شئ عند خروجهم فهم يعلمون أن الممثل يضحك منهم ، وأحيانا يخاطبهم ويشير إليهم وينزل إلى صفوفهم . . أى لافرق بين المسرح وبين الصالة ، بين الممثل والمؤلف

والمتفرج والمخرج ، بين الكذب والصدق . فكله كذب فى كذب . . لا هو ينقد جادا ، ولا أنت تصلح نفسك جادا . . وعلى الرغم من أن العبث الضاحك يسخر من كل القيادات بالأسم ، فكأنه لا قال ولا انتقد . . فلا أحد يصدق ما يسمع ، ولا أحد يصدق ما يقرأ . . ولا الممثل طبيب ولا المتفرج مريض ولا المسرح مصحة للأمراض النفسية والاجتماعية والسياسية . . .

فكان هذا الذى ذهب إليه الناس فى السبعينات ليس مسرحا . . وكان الذين ذهبوا ليسوا متفرجين . . وإنما المسرح صدى واستمرار لكلام الناس . . فالمسرح أصبح سهرة . . قعدة . . غرزة . . (ونسة) ــ كما يقول الاشقاء فى السودان!

(١٣)

ولا بد أن يحار المؤرخ والمحلل النفسى للشعب المصرى ، فالمصريون قد رفضوا الهزيمة العسكرية ولم يقبلوا النصر العسكرى . .

أو أن الهزيمة قد رفضوها إلا قليلا والنصر العسكرى قد قبلوه إلا قليلا .

أى أن الهزيمة كانت نصرا . . وأن النصر كان هزيمة . . وأن الهزيمة العسكرية كانت هزيمة جيش وانتصار قائد . . وان العبور كان انتصار جيش وهزيمة قائد ـ وليس هذا تخريفا ولا تلاعبا بالألفاظ وترتيبها . وإنما قيل ويقال؟!

والمعنى : أن المصريين يريدون أن يكونوا فى حالة من الهزيمة والنصر . . فى حالة من العبث : فلا معنى للهزيمة ولا معنى للنصر . . ولا فرق بين عبور القناة والوقوف عندها . . ولا بين الاحتلال والجلاء . . وكل الأرض المحررة تساوى فى حجمها ومساحتها وخطورتها طابا التى لم تتحرر . . وأن سيناء المحتلة كلها ، أشرف من سيناء المحررة كلها . . كل ذلك قيل ويقال . . والمعنى : أنه لا معنى . . ولا منطق . . ولا عقل . . وأن المصريين حريصون على تمديد وتطويل وأبدية حالة الضياع . . حالة العبث النفسى والتاريخى . .

وفى السبعينات ومع حرية الصحف والمسارح والرأى ، نجح المصريون فى أن يحولوا (العبث العابس) إلى (العبث الضاحك) وبصوت مرتفع وفى كل مسرح ومسلسلة وصحيفة . . فهم

يضحكون من سخافتهم وعلى سخافتهم . . وهم يتشقلبون فى كل المسارح . . ويهاجمون ويجرحون ويذبحون ويسيلون دماء كل الوزراء . . وكل يسيلون دماء كل الوزراء . . وكل القيادات كل ليلة . . والناس يضحكون . ويرون فى هذه الجرأة كسبا عظيما .

وفى مثل هذه المسرحيات لابد أن يتم زفاف السياسة للجنس . . وأن يكون الجميع عاريا . . وأمام هذه التعرية تتوارى الوجوه خجلا . .

ولكن الناس يذهبون لأنهم يبحثون عن «صدمة» لكى يفيقوا . . ويصدمهم المسرح ولكنهم لايفيقون لأنهم قد أدمنوا الفضائح السياسية والجنسية .

وفى ذلك تتنافس كل المسارح وتعلن عن الضحكات فى كل ساعة . . فلم يعد الزمن هو مقياس الحركة ـ كما تعلمنا من أستاذنا أرسطو ـ وإنما أصبحت وحدات الحركة هى النكته ـ فيقال مسرحية الألف نكته والمليون ضاحك .

(١٤)

وبعد الهزيمة العسكرية أحسسنا أننا خدعنا أنفسنا . . صدقنا ماكان ينبغى ألا نصدقه . . وضحكنا على الذى كان من الواجب أن يبكينا . وتعايش الناس مع الزمان والمكان بالمعنى العبثى . . فالمنطق يقول : أن الإنسان لايوجد فى مكانين فى وقت واحد . . أى لا موجودا فى بيتى ومكتبى فى نفس اللحظة . . ولا يوجد زمانان فى زمن واحد . . أى أننى لا يمكن أن أكون الساعة السابعة فى مكتبى وفى نفس اللحظة فى بيتى . . ولا يمكن أن أظهر طفلا ورجلا معا . . ولا أن أظهر حيا وميتا . .

ولكن هذه هى دعائم مسرح العبث أى أن هذا ممكن . . بل ضرورة مسرحية . .

وكذلك الأحداث العسكرية والسياسية . . فقد كانت قواتنا تتحطم على أرضنا والاذاعة تحدثنا عن دخولنا الظافر إلى تل أبيب . . وكانت طائراتنا تتساقط وفى نفس الوقت نستقبل قطارات قد امتلأت بأسرى إسرائيل . . وعندما عرفنا أن الهزيمة وقعت ، ضاعفنا عذابنا وهواننا فأخترعنا خرافات تقول أن الطائرات التى ضربتنا كانت تقودها مجندات حوامل؟!

وعندما بدأ الشعب يضحك ـ لأن شر البلية ما يضحك ـ وقف الرئيس جمال عبد الناصر فى مجلس الشعب يطلب من الشعب المصرى أن يكف عن النكت والسخرية من القوات المسلحة . . فأين ومتى وكيف يضحك الناس؟ . وهل من الممكن أن يحصل على تصريح بأن يضحك؟ وأن يعرف مساحة فتحة الفم

وحركة الشفتين والدرجة الصوتية للضحك؟ ـ كل ذلك حدث . وكان عبثا بلا مسرح . . بل كان أقوى من المسرح . فقد كانت الحياة نوعا من العبث من تأليف وإخراج وتمثيل الناس!!

يقول يونسكو : أن الماريشال الفرنسى بتان فى أحد العروض العسكرية تعثر فوقع ، فضحك أحد الجنرالات!

ولما سألوا الجنرال عن السبب قال : لأنها نكتة بايخة . . فقد تعثر الماريشال قبل ذلك فسقطت فرنسا كلها . . وهو الآن يسقط مرة أخرى! فكيف لا أضحك على هذه الركاكة فى التأليف!

فكانت الدعوة لأن يكف الشعب عن الضحك : أكبر نكتة بعد الهزيمة العسكرية .

ولم يضحك لها أحد بصوت مرتفع!

(١٥)

المؤلف المسرحى الرومانى الأصل الفرنسى يوجين يونسكو له مسرحية اسمها الكراسى «ظهرت فى مصر» على المسرح نجد عددا كبيرا من الكراسى بينما زوجان يظهران يستقبلان الضيوف . ويطلبان إليهم ان يجلسوا هنا وهناك . . لا ضيوف اطلاقا . . وإنما الزوجان يتخيلان ان هناك ضيوفا . الحفلة فى إحدى الجزر . . أو كأنها .

ولما لم يحضر هذه المسرحية أحد كثير فى باريس كان تعليق المؤلف على ذلك : يسعدنى ان يكون عدد الحاضرين فى الصالة كعدد الضيوف على المسرح . . هذا هو المعنى الذى أريد . لا أحد هنا . . ولا أحد هناك . . أناس بلا مقاعد . . ومقاعد بلا ناس . . هذه هى حالة الدنيا!

إذن فأعظم تحية للمؤلف ألا يذهب أحد لرؤية مسرحيته . . ويروى يونسكو نكتة بين برنارد شو وتشرشل . فقد ارسل شو تذكرة لونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا يدعوه إلى إحدى مسرحياته قائلا : تذكرة لك أو لأحد أصدقائك ان كان لك أصدقاء!

ورد تشرشل التذكرة قائلا : تذكرة لك أو لواحد من جمهورك ـ ان كان لك جمهور!

وكان من رأى يونسكو ألا يبعث شو وألا يرد تشرشل . . لأنه ليس من الضرورى ان يذهب أحد إلى المسارح . والذين يذهبون

إلى المسارح كاذبون كالذين يمثلون تماما . وأنه شخصيا قد اضطر إلى اظهار ممثلين على المسرح فقط لكى يثيروا التراب فى عيون المتفرجين فلا يعودوا بعد ذلك وهو يرى : أن هناك نوعين من الكذابين المحترفون وهم الممثلون والهواة وهم المتفرجون!

وكان توفيق الحكيم اسبق الجميع إلى دخول مسرح العبث ـ مسرح اللامعقول ـ فكانت أولى مسرحياته : ياطالع الشجرة العنوان اخذه من أغنية شعبية تقول : ياطالع الشجرة . هات لى معاك بقرة . . تحلب وتدينى بالمعلقة الصينى . .

ووراء هذه المسرحية المصرية وتحت تأثيرها ظهرت مسرحيات لا معقولة كثيرة . ولم تنجح معظم هذه المسرحيات رغم أنها توسلت إلى الجمهور بالغنائيات والبكائيات الشعرية ـ فلم يكن الموقف يحتاج إلى مزيد من الحزن والأسى!

(١٦)

حتى بلغنا الهزيمة العسكرية فاصابنا ما أصاب أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى والثانية : شعور بالخيبة واليأس والضياع . .

يقول كامل الشناوى : ويضيع من قدمى الطريق . . لقد ضاع الطريق وتلاشت الاقدام . . وتبددت الأحلام والأوهام . . وانتعش مسرح البعث الرمزى المأخوذ من ألف ليلة وليلة «ومن الهلالية والزناتية» والملاحم الفرعونية . . ولم يكن للرمزية إلا معنى واحد : أنه حيث لا حرية فالرمز هو الحرية . .والاشارة من بعيد والايماء . . والمؤلف يعرف أننا بالاشارة نفهم ، والجمهور يطالب المؤلف بمزيد من الاشارة . أى بالابقاء على الرمز . . والاغراق فيه . . وينفتح باب الاجتهاد على فهم مفردات الخيبة الوطنية والمصيبة القومية . .

ولكن فى نفس الوقت كان الذى يسود المؤلف والممثل والمتفرج والناقد هو أنه لا جدوى . . لا أمل . . ولا معنى . . فالمسافة التى بين الممثل والمتفرج بحار من الوحل . . والمؤلف يستخدم سفينة من نوع خاص لكى يبحر فى الطين ويرسو على اليأس . وهو يعلم ونحن نعلم أن هذا ليس بحرا وأن هذه ليست سفينة .

ولكن المؤلف مثل سيزيف فى الأسطورة الاغريقية : يدفع إلى أعلى الجبل حجرا ثقيلا والحجر يهبط . . فيعود يدفعه من جديد .

وإلى الأبد . . دون يأس ودون أمل . فلا هو يتوقف ولا نحن نغمض عيوننا . . ولم يعد للحزن معنى ، ولا للمحاولة المستمرة ولا الفرجة على كل ذلك . . ثم أننا لا نضحك!

وإذا ضحك فلأن المؤلف يتوهم أننا قد فهمنا ما يرمز إليه . . وإذا ضحك هو فلأنه يتوهم .

إنه سوف يكرهنا على الضحك وإذا ضحك الممثلون ، مع أنه لا شيء يضحك ، فلكى تنتقل إلينا عدواهم . . فقد أصبح الضحك مرضا معديا . . أما الصحة فهى ألا نضحك وإنما نكتم فى انفسنا ، كما أن المؤلف يكتم المعانى فى الألفاظ . . والممثلون يجهزون عليها وهذا هو العبث العابس أو الضياع الحزين!

الناس فى قطر !

(١)

هذه المرة كانت زيارة قطر أطول وأعمق . . ومع ذلك فلا نرى ولا نسمع إلا قليلا من الناس وعنهم ولكن هذا القليل يؤكد أن البلاد كلها تتحرك وتتسع وتضىء . . الشوارع تزداد نورا والناس تزداد ثقافة والبنت تتحرك أكثر . . ولا تزال الفوارق بينها وبين الجنس الآخر فى كل مراحل التعليم . أما ماذا سيحدث لهذه الحواجز بعد ذلك ، فشأن الأجيال الجديدة نفسها .

وإمارة قطر الهادئة الناعمة تنتقل من الشاطئ إلى البحر . . فالتوسع للداخل يكلف الدولة أكثر فالناس رفعوا سعر الأرض التى تنوى الدولة الاستيلاء عليها . . فوجدوا الحل السعيد ان يردموا البحر . .

وأمير قطر الشيخ خليفة آل ثانى ورجاله يتكلمون عن مستقبل الامارة : صناعة وزراعة وتطويرا وتعليما .

وهم يستعيرون تعبيرات الدول النامية : العمل والإنتاج . وهذا يدل على أن هناك نوعا من الخوف على مستقبل البترول . فالشعب يجب ألا يعتمد على الذهب يخرج من تحت قدميه ، وإنما على الغاز والصناعات البترولية والقطاع الخاص . . وهذا الخوف هو الذى

جعل الدولة تحسبها بالدولار . . وتضغط وتقلص مشاريعها وترشد استهلاكها . .

فلما جاءت حرب الخليج ازداد القلق فقد ساهمت الدول كلها فى ابقاء الحرب مشتعلة . . بالوقوف إلى جانب العراق ضد إيران . . وان كانت بعض الامارات قد ساعدت الدولتين . لكن من المؤكد ان هذه المعونات جعلتهم يوقفون مشاريع التنمية ويفتحون الابواب لخروج العمال والموظفين الأجانب .

قال لى أحد الوزراء : لو لم تكن هذه الحرب الملعونة لكان فى هذا المكان أعظم عشرين عمارة واروع خمسين محلا لبيع كل شىء ، ولترددت الدولة ألف مرة فى ان تتقاضى ريالا واحدا من الذين يدخلون المستشفيات .

سألنى أحد الشيوخ : ماذا فعلتم مع سمو الأمير حتى جعلتموه هكذا يضحك؟ هذه هى المرة الأولى التى نراه يضحك!

بل يجب ان يضحك الأمير والوزير . . فالحياة شاقة . والضحك يخفف ويلات الحياة اليومية . . ومن صالح الشعب ان يكون الحاكم أقل توترا حتى لا يخطىء فى تقديره ولا يقسو فى احكامه اجعلوه يضحك ليكون أعدل!

(٢)

المصريون فى غاية الحساسية . . كل من قابلت من الرجال والنساء يصرخون بما معناه : أنتم فضحتونا . . وجعلتم رؤوسنا فى حجم السمسمة!

أما سبب الإهانة التى لحقت بالمصريين فهى ما تنشره الصحف من جرائم : خطف وقتل وهتك وسرقة وما تنشره عن الزوجات القاتلات . .

ولا أظن ان هذا مما يبعث على الخجل فكل المجتمعات الكبيرة يحدث فيها أسوأ مما يحدث فى مصر . فى أمريكا وفي انجلترا . . يكفى أن نقرأ الصحف اليومية المتخصصة فى الأحداث والجرائم ليقف شعر رءوسنا . فهذه الصحف قد ركزت على الحوادث اليومية . . بينما صحف آخرى ركزت على السياسة الخارجية والدولية وعلى الاقتصاد . . وصحف من نوع ثالث على البورصة وطلوع ونزول الدولار وأثر ذلك على المواد الأولية والطاقة الكهربية والنووية وتلوث البيئة . . ومن يقرأ هذه الصحف المتخصصة يخيل إليه أن الحرب غدا . . وان الجوع والخراب بعد غد . .

قلت لإحدى المصريات نفرض ان فى مصر جريدة يومية تهتم بحوادث المرور فقط . . إذن لرأيت حوادث السيارات مع السيارات مع القطارات والتراموايات . . ولرأيت الناس يتساقطون بين العربات . . وعند تحليل دم السائقين سوف نجد أنهم يتعاطون المخدرات . وأنهم لذلك لا يرون السيارات والناس وعلامات المرور بوضوح . . ومن يقرأ هذه الصحف يخيل إليه أن مصر كلها يدوس

بعضها على بعض . . وأن الناس فى مصر أما يركبون السيارات أو يموتون تحتها . .

ولكن نشر الجرائم ـ فى صفحة واحدة ـ من الأهرام لا يعنى أن كل الصفحات جرائم . . ونشر أخبار الوفيات فى صفحتين أو ثلاثة لا يعنى أن مصر كلها ماتت أو تستعد للموت . .

فمن الطبيعى ان تتصادم السيارات مادامت كثيرة ، ومادامت الشوارع ضيقة ، ومادام الناس عصبيين . . وهم عصبيون لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية وبسبب الزحام الشديد فى العاصمة فلسنا أسوأ الناس ، وإنما هى طبيعة الزحام الشديد فى الأتوبيسات والمدارس والمستشفيات وأمام المجمعات . وسوف يبقى ذلك طويلا .

(٣)

يشعر المصريون بالخجل من هذه المسلسلات التليفزيونية التى تصورنا غجرا حشاشين لصوصا منحلين ، أكثر المسلسلات . ألا يوجد فى مصر شئ جميل . ألا توجد أخلاق؟ سيدات شريفات ورجال محترمون؟ ان هذه المسلسلات عار قومى . فكيف نسمح بإنتاجها فى مصر أو خارج مصر؟

لا شك أن فى العلاقات الإنسانية عيوبا لابد من معالجتها بعرضها والسخرية منها والعلاج مسألة متروكة للمؤلف وبقية الفنانين . وكل فنان له طريقة مؤلمة أو مضحكة . وكما أن الصحافة حرة فالأدب والفن كذلك . ومن يتفرج على المسرح يجد النقد عنيفا . والناس يضحكون فالمسرح يقدم للناس ما يريده الناس . . سواء كان ابتساما أو قهقهة . . أو تحشيشا . إنها الحرية . . وعيوب الحرية أقل ضررا من عيوب القهر والكبت . . وقد اخترنا الحرية ، وسوف نقوم من تلقاء أنفسنا بضبط النفس واحترام الغير . .

والناس فى مصر لا يحبون ذلك ـ أى لا يحبون ان يجدوا أنفسهم على الشاشة حشاشين ومهربين ولصوصا . . ولا يحبون أن تنتهى كل قصة كفاح بزواج الخادمة الشابة من السيد ، لأن زوجته قد تقدمت بها السن واعتلت صحتها .

ولكن مناظر العنف قد توارت من التليفزيون . وان كانت لا تزال فى السينما . والسينما قطاع خاص . ومنتج الفيلم حر فى اختيار مادته . وسوف يلقى جزاء من الجمهور الذى يذهب إليه . . بينما التليفزيون مفروض على الناس ، يدخل بيوتهم دون إذن . ولذلك

يجب ألا نسيء استغلال هذه القدرة الهائلة ، ونفسد الأسرة والقيم الأخلاقية . ولا يزال التليفزيون جهازا رسميا . وواجبات الدولة مختلفة عن أهداف السينما التى هى قطاع خاص .

فعلا هناك مبالغات . . وهى ككل المبالغات لا تعبر عن آمال ومخاوف الناس . . وإنما تمثل بعض الناس بعض الوقت . فإلى جانب المسلسل الشائن ، هناك مسلسلات وأفلام تدعو إلى الفخر وعظيم الاحترام ـ فالأحساس بالعار ، هو الآخر مثل بعض الأفلام ، مبالغ فيه جدا !!

(٤)

المصـريون فى حـالة من القلق . . وهم فى ذلك مـثل كل أبناء الخليج . . فهـم صورة للبيئة التى يعملون فيـها بجد وشرف ، وهم مـعـذورون . فـالحـرب بين العـراق وإيران والاضطراب فى أسـعـار البترول ، والتـهـديد باستخدام الطاقة الكهربية والنووية والشمسية والعودة إلى الفحم ، كل ذلك قد أخاف دول البترول على حاضرها ومستقبلها . ثم ان الزلزال الإيرانى وظهور الجماعات المتطرفة والمد الدينى الإرهابى قـد سـحـب المخدات والالحـفة من فـراش النائمين الناعـمين . . وتحـولت المخـدات إلى مـسـامـيـر والمراتب إلى أشعواك والأحـلام إلى كـوابيس . . وتـقلصـت مـشـاريع البناء والتـعـمـيـر والتـجـمـيل . . وكـان لابد من الاسـتـغناء عن العـمالة المدربة وعن المدرسين والاطباء وغيرهم .

ولم يكن ذلك مـوقـفـا من المصـريين وحـدهم ، وإنما من كل الأجانب .

والمصريون لم يفيـقوا من صدمة الريان ـ ضاعت تحويشة العمر بمئات الملايين . . وكل مصرى عنده قصة كفاح وصبر وجوع ووضع القرش فوق القرش من أجل أولاده وشيـخوخـتـه . . كل ذلك راح غلطة المصـريين أنفـسـهم؟ غلطة الريان؟ غلطة الدولة التى رأت وسكتت؟

والمصريون هنا يذكرون بألم وفزع ما حدث فى العراق . وهم لم يقرأوا فى صحفهم شيئا يبرر أو يغفر لما حدث فى العراق . . وكثير من صحف الخليج هاجمت امصريين . . والقليل منها وجد عذرا .

ونحن نعرف الحقيقة . أنها أخطاء من الطرفين . ولا داعى لذكر ما حدث . فإذا كان هناك ما يخجلنا نحن المصريين ، فهناك أيضا ما يخجل العراقيين . . ولكن من أجل شعب مصر وشعب العراق ، يجب أن نتغاضى . وقد تغاضينا وتغاضوا أيضا .

والدنيا كلها الآن على كف عفريت الشرق يخلع جلده ، . والغرب فى فزع . . والأرض كروية . . وكان الأثريون يفسرون الزلزال بأن الثور الذى يحمل الأرض على أحد قرنيه ينقلها من قرن إلى قرن من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين .

(٥)

لابد من مساءلة شركة النصر للسيارات عن إدارتها الفاشلة لمعرضنا فى الخارج . . فمعرضنا فى الاتحاد السوفيتى نموذج للفوضى والاهمال . المصنوعات وصلت متأخرة أياما بعد نهاية المعرض . . ولم نسمع أو نقرأ تفسيرا لما حدث!!

والمعرض المقام الآن فى الدوحة قد استولى عليه الدمايطة فهم يبيعون الحلويات بكل أنواعها ويبهرون الناس بالأثاث الضخم الفخم المصنوع من الخشب . والمقاعد كأنها كرسى العرش الذهبى . . وهذا المعروض قد تأجل عرضه أياما . أربع مرات . والمعروضات جاءت بطريق البر مارة بكل نقط الحدود والجمارك ولقيت ما تلقاه كل السلع أيا كان مصدرها من تفتيش وتفتيش . وهى إجراءات أمنية معروفة لكل من يدخل السعودية . . والأسباب معروفة لنا . ولا لوم على السعودية!

وقد طال الطريق وتعطلت السيارات وتحطمت المعروضات . ولابد أن نسأل الذين نظموا المعرض عن هذا الذى حدث فى الدوحة وفى ميناء أوديسا وفى ميناء الاسكندرية .

ولماذا أصدر الوزير قراره متأخرا؟

ثم يجب أن نسأل العارضين أن كانت لديهم أية معلومات مسبقة عن الأسعار التى يضعونها والأسعار اليابانية والأمريكية فى هذه البلاد . . أننا لا نعرف احتياجات السوق ولا ذوق الناس . هل أقول إن اليابان قد سبقتنا إلى ذلك ألف مرة . . إنهم يصنعون

كل الأدوات العربية والشرقية بمهارة ورخيصة . . ابتداء من الكوب والكنكة والبراد والسخان . . والساعة التى تؤذن والساعة التى تحدد لك القبلة بالصوت والصورة . .

المصريون يتساءلون ومعهم حق : من الذى أرسل هذا؟ من المغفل الذى بعث هذا؟ من الحيوان الذى خطر له أن يبيع مثل هذه الاشياء هنا ولمن؟

المصريون هنا ـ بحساسيتهم الشديدة ـ يتساءلون ان كانت فى مصر عصابات تحاول ان تلوى القانون وتعمل على بهدلة مصر خارجها .

والمصريون يدعوننا إلى أن نحاسب ونحاكم هؤلاء الذين ينتهزون المناسبات الدولية ليجعلوا فضيحتنا دولية أيضا . .

مشاكلنا . . حاجة

اكتسب الرئيس حسنى مبارك احترام العالم كله بخطابه الذى ألقاه فى القمة العربية أولا . . لأنه من أول لحظة نقل إلى أشقائه الرؤساء هموم العالم العربى وضرورة أن نجد لها حلا . . فهو لم يكن غائبا بمصر عن الجامعة العربية ، إنما كان حاضرا يفكر ويدبر ولا يريد أن يضيع وقته ووقت أحد فى الشعر وجميل الكلام . فالموقف لا يزال خطيرا ويزداد خطورة ، والعقد لن تنحل بعصا موسى وخاتم سليمان ومصباح علاء الدين والرجل المعجزة والدولة المعجزة ـ فلا معجزات ننتظرها ولا معجزات مخترعها . وإنما الحل يجىء حينما يجب أن نصدق فى وزن المشاكل وبيان خطورتها علينا ، وإذا لم نواجه أنفسنا بأنفسنا ونصارح أنفسنا بما نعرفه ونقوله سرا ، ويعرفه المائة مليون عربى والألف مليون مسلم فكأن الجامعة العربية لا اكتملت ولا اجتمعت ولا تغيرت وكأنها حضرت غائبة وغابت حاضرة وكأننا يابدر ولا رحنا ولا جينا .

أما إذا أحيينا نظرية فلسفية قديمة تقول : أنت موجود ما دمت أراك فإذا أغمضت عينى فلا وجود لك ، فالدول العربية التى تدير ظهرها للدول العربية خاطئة إذا تصورت أن هذا حكم بالاعدام

على الذى لا يرى ولا يتكلم ـ غلط فظيع ياعرب . . بل يجب أن ترانى وأراك وتحاسبنى وأحاسبك فإن أى رئيس إذا جلس فى مواجهة رئيس آخر فهو يمثل لملايين السوريين والعراقيين والليبيين والسودانيين فكلنا عرب . وكلنا فى الهم والكرب العظيم والأمل العظيم عرب .

فمشاكلنا لم تنحل تلقائيا فى الدار البيضاء بل بدأت المشاكل . . بدأت الحسابات . ولا توجد حسابات ختامية . فلا ختام لجلساتنا مادامت المشاكل لم تنحل . فالملك الحسن رفع الجلسة لتبدأ المحادثات والمناقشات والعمل الحقيقى . فليس صعبا أن تظل الجامعة العربية فى حالة انعقاد دائم فهناك هموم وطنية كما أن هناك هموما قومية وعالمية . .

فجلسات الجامعة العربية منعقدة بصورة دائمة فى كل العواصم العربية ، ونحن ننتظر كما أن شعوبنا والعالم كله ينتظر ، وفقنا الله لما فيه أدراك صحيح منطقى علمى لحجم مشاكلنا وحجمنا أيضا!

النائمون لا ينهضون

سوف تقول : يوه . . لقد سمعنا هذا الكلام مائة مرة!

صح! ولكن ما الذى لا يقال الوف المرات؟ ما الذى لا تفعله ملايين المرات؟! فكل شئ يتكرر فالوجه الواحد فيه عينان وإذنان وشفتان والوف الوف الشعر . . ولكن يجب أن نتساءل ولماذا التكرار؟ لأنه لابد أن نؤكد المعنى الذى نريد . . ولأن الناس ينسون ويتناسون . وواجبنا أن نوقظ النائمين ، ونزعج الكسالى واللامبالين . . والزعماء هم أباء الشعوب . . والشعوب مهما كانت قوية فهى كالأطفال يجب أن نشدها من أذانها وأن نسحب عنها الغطاء ونلقى فوقها بالماء حتى تصحو وتدرك ما فاتها . .

فنحن العرب اشبه الناس بأهل الكهف . . ننام طويلا ويصح لنا النوم . وننسى أن النوم ليس الهدف . . وننسى أن العالم كله قد سبقنا وتقدم . . ولكننا نريد الزمن ان يقف ويتجمد حتى لا يفوتنا شىء . . وإذا كانت الشمس قد وقفت فى السماء مرة واحدة حتى ينتصر أحد ابطال التوراه . . فقد اعجبتنا هذه المعجزة ونريدها مرة أخرى . . بل نريد الكون ان يتوقف حتى نصحو على أقل من مهلنا ونتثاءب ونشرب الشاى ونتكيف . . ثم لا نريد احدا ان يعيد ويزيد ما سبق ان قاله لنا .

ولكى ننجح حيث فشل الآخرون يجب أن نبدأ نحن بما يدعو إليه الآخرون .

ندعو إلى النهضة ونحن نائمون . . ندعو إلى العمل وأيدينا وراء ظهورنا . . ندعو إلى انتهاز الفرص ، وقد احترفنا تضييعها . . وليس اصدق مما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام : ابدأ بنفسك ثم بمن تعول . . أى أعمل أنت أولا . وكافح أنت أولا . وتقدم أنت وتفوق وانظر إلى الأمام . . أى كن أنت القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى . . ونجاحك هذا سوف يدعو غيرك إلى السير وراءك . . إن العالم العربى لا يخفى اعجابه بمصر ورئيس مصر ، فقد ضربنا المثل الأعلى فى الحرية والديمقراطية والصبر والكفاح والنجاح . صدقنى . . سمعت منهم الوف المرات!

البيوت البيضاء..

(١)

أما العمارات والشوارع والفنادق والقصور فاعرفها . . رأيتها دخلتها ، درت حولها . سألت عنها . . الوجوه سمراء مستديرة والعيون شديدة البيضاء . . والشفاء غليظة والسفلى أغلظ وانفصلت عن العليا وانقلبت عليها . . واللغة الواضحة هى الفرنسية . . وهم ينطقون (الاغ) أى الار أى حرف الراء كالفرنسيين تماما . . أما العربية فهى مخطوفة ملتوية ملسوعة تتخللها كلمات بربرية . . فهم من البربر . ولذلك يضيقون منا عندما نتحدث عن البدائيين والوحوش ونقول أنها قوة بربرية . . أو أنه بربرى . . ونحن لا نقصدهم وإنما نحن نردد الكلمات الأوروبية التى تصف البدائيين بأنهم بربر وبربريون!

وطبعا نحن معجبون بشوارعهم النظيفة . . وأشجارهم والمصابيح فى الليل . . ونراهم لا يختلفون عنا فى أنهم عصبيون أنظروا إلى سائقى السيارات من النساء والرجال أنهم يدوسونك . . أو يحاولون ذلك . . ويرون فى نزولك إلى الشارع تحديا لهم . . كأن الشارع للسيارات والسير فوق الاسطح للمشاه . . وكنت اتصور أن الوقوف على الخطوط البيضاء تحذير لهم بأن يتوقفوا فورا . . الانجليز يفعلون ذلك وأحيانا الفرنسيون .

ولكن المغاربة لا يرون لا العلامات ولا المشاه . . فقط عساكر المرور . وقد انتهز المغاربة فرصة وجود الملوك والرؤساء فشددوا قبضتهم على كل شئ يتحرك . . فنحن نقف للتأكد منا دخولا وخروجا . ولا مناقشة . ولا يهمهم من أنت . قف معناها أن تقف .

أما الشوارع الكبرى ــ بوليفار ــ فهى أوروبية الطول والعرض والأشجار والعلامات . . ولكنى أفضل الأحياء الشعبية . . فأكثر ما يباع فيها الجلاليب والمصنوعات النحاسية ــ ليست متقنة تماما ــ والمصنوعات الذهبية ــ ذهب أحمر وليست متقنة كالتى نجدها فى الخليج أو فى السعودية . . أو فى تركيا ــ تركيا أفضل الجميع!

والمرأة فى الشارع ترتدى الجلباب . . هناك مسميات مختلفة للجلابية ومنها أخذ الفرنسيون موضة الشوال . . أما الرجال فيرتدون البدل . . كثيرون يرتدون الجلابية والطربوش . . ولها أسماء مختلفة .

وتفاجأ بمن يقول لك : الأخ مصرى فتقول : نعم . . فيحاول ان يكلمك بلغة الأفلام المصرية والأغانى !

(٢)

وينطقون هذا الاسم ، خطفا فيسقط الألف واللام والهمزة . . والسائق يعتذر لك بأنه لا يعرف المكان فقد جاءوا به من الرباط العاصمة . . ثم أنه ينتقد أهل الدار البيضاء لأنهم لا يعرفون مدينتهم . . تصورا ــ هو الذى يقول .

والدار البيضاء هى جنة النساء وجهنم الرجال ــ فكل شئ فيها يقبل الفصال . . فالذى ثمنة ألف يمكن أن تشتريه بنصف هذا المبلغ . كيف؟ إنها براعتك فى الفصال . . أى بعد أن يقدموا لك الشاى الأخضر . . ومعه مقعد والضحك ومحاولة الكلام باللهجة المصرية . وكلمة منك وكلمة منه . .

لنا صديق يشترى عن طريق الصدمة «الكهربية» . . فهو يصدم صاحب المحل . . يقول له : أربعمائة درهم . . لا تزيد درهما واحدا!

ويكون الثمن المطلوب ألف درهم . . ويصاب صاحب المحل بصدمة بدوخة . وينتهز صديقنا هذه الفرصة ، فيرش على وجهه بضعة دراهم أخرى . . خمسة عشرة . . ويوافق صاحب المحل على السعر الذى يحدده صديقنا . وهى قدرة لا يستطيعها إلا خبراء الصدمات الكهربية . . ولكن المرأة بطبعها تجد متعة فى الفصال . . والاخذ والرد . .

وهى متعة عند المرأة يعرفها الباعة . . ولذلك يتفننون فى إثارة المرأة وإرضائها . . والبيع لها وهم الرابحون . . وتتوهم المرأة أنها هى التى ربحت وضحكت على الباعة . وتروى انتصاراتها لجاراتها .

وأذكر أننى كنت فى طوكيو . . وقال لى موظفو السفارة المصرية أنهم يعرفون محلا يابانيا وحيدا يبيع لهم بتخفيض ٥٠٪ . ولذلك فهو لا يقبل المفاصلة ـ أى أنك تدفع ما يطلبه لأنه قد خفض لك النصف دون أن تبذل جهدا! شىء غريب وعجيب!

وفى يوم قابلت احد موظفى هذا المحل فى القاهرة . وسألته عن سر هذا التخفيض الغريب . . فقال : طبعا صاحب المحل كسبان . . فهو الذى حدد السعر وهو الذى ادعى التخفيض . . وأنت عادة لاتذهب إلى أى محل آخر لكى تقارن الأسعار . . فهذا الرجل لم يخفض مليما واحدا!

ولا يوجد تاجر واحد يخسر مليما من أجل سواد عينيك . . أو عينيها!

(٣)

البيوت ليست مرتفعة فى هذه البلاد . ولكنها بيضاء من الخارج . . وهم يفضلون ان تكون البيوت من ثلاثة أو أبعة أدوار . . فالصحراء حولهم ولذلك من الأفضل أن تتناثر البيوت . . وان تدور حولها الحدائق . . فالأرض واسعة . . والبيوت من الخارج لا تكشف الروح المغربية أو الاندلسية . . ولكن إذا دخلت البيوت أو القصور الصغيرة وجدت الهندسة الاندلسية . . الفسيفساء على الجدران . . والنقوش العربية ثم الحدائق الاندلسية . . أى الحدائق التى فى وسط البيت . . أى التى تراها من كل الغرف . . والجدران عالية والغرف واسعة . . وهذه العمارة المغربية مع الازياء المغربية تجعلك تحس أنك فى بلد حريص على ان يتمسك بتقاليده .

ولكن المغاربة يعيبون على أنفسهم أنهم يتكلمون الفرنسية وينسون العربية . . ومعظمهم عندما لا يجد اللغة العربية تسعفه فى أداء المعنى الذى يريد فإنه يتكلم الفرنسية ليوضح ما يقول . . ولكن المغرب حريص على اللغة العربية وعلى الإسلام والقرآن الكريم والارتباط بالحضارة العربية الإسلامية . .

أذكر أننى كنت على موعد مع بعض الوزراء الجزائريين على أيام الرئيس بومدين . وكانوا يعتذرون عن مقابلتى قبل الموعد المحدد بساعة . وكنت اندهش لذلك! ولا استبعد عذرا طارئا . . ولكن كيف يطرأ هذا العذر لأكثر الوزراء . وعرفت أنهم لا يحسنون الكلام باللغة العربية وأنهم يخجلون من ذلك . فكنت أقول ولكنى اعرف الفرنسية . ويكون الرد ولكنهم يخجلون من عجزهم عن

الكلام بالعربية! أولأن اللهجة الجزائرية غير مفهومة عندنا نحن المصريين أو عند غيرنا . . والفرنسية لا شك أوضح!

ولما اشتريت بعض الكتب المغربية فى الفلسفة والنقد الأدبى وجدت اللغة سليمة . . ولكن المشكلة التقليدية هى أن المصطلحات الفلسفية والعلمية مختلفة . . فنحن لم نتفق على معانيها فى المجامع اللغوية أو العلمية ـ فلابد من ذكرها بالفرنسية حتى نفهم ونتفاهم . .ولكنهم هم أيضا يعيبون علينا نحن المصريين أننا نحشر بعض الكلمات الانجليزية فى أحادثينا ، وإن كنا لا نحسن نطقها ـ هذا صحيح!

(٤)

دخلت عددا من المكتبات . تفرجت على الكتب العربية . قلبت فيها . الكتب العربية الإسلامية كثيرة والكتب المترجمة أيضا . أكثر هذه الكتب جاءت من لبنان؟! يا ترى من أى مكان تحت القنابل فى لبنان؟!

ولكنها من لبنان . أما الكتب المترجمة فهى العلمية . . ولم أجد إلا القليل من الكتب المصرية . ويسألونك : غلطة من هذه؟ كيف لا توجد كتب مصرية ونحن نعرف كبار المفكرين والشعراء والأدباء؟! ثم سؤال غريب : هل ترى أن نجيب محفوظ يستحق جائزة نوبل؟

فاقول : نعم . وبكل جدارة وهذا فخر لمصر وللعرب .

سؤال : يقال أنهم اعطوه هذه الجائزة بسبب رواية «أولاد حارتنا» التى تشكك فى الدين . . وأنهم حريصون على هدم الإسلام .

وأقول : أن المؤلف الروائى عنده حرية لا أول لها ولا آخر . . فهو يستطيع أن يقدم شخصيات تشك وتكفر وتسكر وتحشش . . ولا أحد يتهمه لأنه لا يتكلم عن نفسه وإنما عن غيره . . عى عكس كاتب المقال . . فلا يوجد كاتب مقال واحد يستطيع أن يقول : شربت كوبا من البيرة أمس . . لا يستطيع . ولكن المؤلف الروائى يستطيع ذلك . .فيجعل ابطاله سكارى شواذ فى أى وقت يشاء .

بينما كاتب المقال يتحدث عن نفسه مباشرة لا عن غيره من الابطال . . وكذلك نجيب محفوظ يكتب فى كل موضوع ويقدم أية

أشخاص . . ويعرض ويحلل . . ويناقش ويفكر . . فالجائزة قد اعطيت لكل ذلك . . وليس لعمل واحد أو فكرة واحدة . . أما المؤلفون الملحدون الذين يهدمون دينا بمنتهى الوضوح فقد حجبت عنهم الجائزة رغم اقتدارهم العظيم . . مثل الشاعر الروائى اليونانى كازانتراكس . . مؤلف ملحمة الاوديسا (٣٣٣٣٣ بيتا) ومؤلف زوربا وإعادة صلب المسيح والعبد لله وغيرها والأديب الإيطالى مورافيا أحد كهنة الجنس ـ لم يفز بجائزة نوبل بعد ان رشحوه وبعد ان وجعت دماغى ودماغه . . ابتسم سائلا : ما الذى حدث لشريهان!

والمعنى : أنهم يهتمون بالكبيرة والكبائر والصغيرة والصغائر المصرية . . إنهم يحبوننا ونحن أيضا!

(٥)

أذكر أننى تحدثت فى التليفزيون الجزائرى وقلت : إن المفاجأة الكبرى فى هذا البلد ان الرئيس هوارى بومدين هو الوحيد الذى يحرص على شيئين : ان يتكلم اللغة العربية وان يضحك بالنيابة عن الشعب ولم أكد أفرغ من كلامى حتى جاءت مكالمة من القصر الجمهورى . وكان المتحدث هو سكرتير الرئيس هوارى بومدين يقول : الرئيس يريد ان يكلمك .

وسمعته يضحك وهو يقول : اننى لن أحميك من الشعب الجزائرى . . فقد أغضبتهم .

وفى المغرب لا استطيع أن أقول أن الملك الحسن الثانى هو الوحيد الذى يتكلم اللغة العربية الفصحى . . أو هو الوحيد الذى يحفظ القرآن الكريم . . وإنما كثيرون فى المغرب حريصون على ذلك وسعداء أيضا!

وعن السير فى شوارع المغرب القديمة يطالعك الطابع الأصيل لشعب المغرب : حب الموسيقى والطرب . . فتسمع القرآن الكريم لكبار القراء المصريين وتسمع أغانى أم كلثوم بأصوات مغربية وأغانى عبد الحليم حافظ . . وتجد عددا كبيرا من المطربات والمطربين بل وتسمع عددا من المطربين والمطربات المصريين لا تعرفهم فى مصر مثل أحمد رشدى وايفا وغيرهما . . وقد خسرت الرهان عندما تحديت عددا من الأدباء إن كان فى استطاعتهم أن يتكلموا دون حشر كلمات فرنسية ـ وخسرت الرهان . . ولكنهم قلة بين المثقفين فى المغرب العربى .

ثم ان الصحف المغربية لغتها عربية سليمة مع بعض الكلمات التى نحتوها للوفاء بالمعانى التى يتداولون . . وربما كانت هذه الكلمات مترجمة عن الفرنسية أو الأسبانية . . وعندنا مثل تلك الكلمات أيضا فى لغتنا الفصحى والعامية . . ولكن تجد موضوعات عن المشرق العربى وعن مصر بينما من النادر ان تجد موضوعات فى الصحف المصرية عن المغرب إلا إذا كانت حدثا جليلا . .

وعندما رحت أقرأ فى الكتب المغربية الفلسفية والأدبية وجدت أنهم يناقشون قضايا فى صميم الأدب والفلسفة لا نعرف عنها شيئا . . ولا هى من قضايانا فى مصر ـ وإن كنت أعرف بالضبط ما هى قضايا الأدباء والمفكرين المصريين فى العشرين عاما الماضية . أنا أقول أنها قضية العبث . . أى ضياع المعنى والطريق والهدف والوقوف عاجزين عن الخروج من هذا المأزق!



هى العاصمة التجارية أو الاقتصادية للمغرب . ولذلك فهى مدينة تختلط فيها الشعوب من كل القارات . وهى مدينة سريعة الايقاع . . ولكنها ليست أجمل المدن المغربية . . وان كانت مدينة عالمية . . وهى مثل كل العواصم الكبرى حريصة على أن تقدم الخدمات ، فيشعر الأجنبى أنه لم يبرح بلده . . ولكن فى المغرب مدنا أخرى أجمل وذات معالم أمتع وجذور أعمق . . هناك الريف المغربى . . الذى هو بقايا الأندلس . . وهناك المدن المغربية الجميلة الفريدة : فاس ومكناس ومراكش . . وهناك أيضا الشواطئ المغربية البديعة والمصايف . والبحر الأبيض والمحيط الأطلسى . . وهناك الجبال والغابات والطرق الملتوية طالعة نازلة . . وهناك الصحارى المغربية بشعوبها واجناسها وألوانها وتقاليدها المثيرة . .

أما مدينة الدار البيضاء ليست إلا بوابة المغرب ومدخله العريض إلى بقية البلاد المغربية . . ولكن المغاربة من كل بلد أولاد حظ وطرب . . يتذوقون الرقص والغناء . . وهم يتمايلون لسماع الموسيقى جلوسا ووقوفا . . ولا شئ يذيب الفوارق بين المغاربة مثل الموسيقى .

وفى مدينة مراكش تشعر أنك فى قلب صميم القاهرة القديمة : ضحك وفرفشة وأم كلثوم وسيد درويش وآخر نكتة عن آخر واحد صعيدى كان فى طريقه إلى المغرب . . وإليها يجىء الشبان على الموتوسيكلات من كل الدول الأوروبية يتنفسون دخانا أزرق وأبيض . . والناس سعداء بذلك . .

رأيت مريضا خرج لتوه من أحد المستشفيات وجاءوا به إلى مطعم كبير يحتفلون بهذه المناسبة ـ وظهرت المغنية وصوتها الشجى الحزين . . وكل الأصوات المغربية كذلك ـ ابتداء من مطربهم الكبير عبدالوهاب الدكالى وانتهاء بمطربهم الكبير الذى اعتزل الغناء عبد الهادى بلخياط . ولم يكد المريض يسمع حتى يتابع الموسيقى بيديه . . كأن الموسيقى قوة قاهرة لا يقاومها أحد . . وإذا كان المرض قاهرا لأى إنسان ، فالموسيقى قاهرة للمرض . . والناس حول المريض يتمايلون سعداء بالموسيقى ولأن المريض قد تماثل للشفاء ـ أليس يتمايل مع الموسيقى؟!

عاصفة الصحراء

(١)

الرئيس بوش زهقان من الأخبار التى تأتى بها أجهزة المعلومات الأرضية والفضائية . فصدام حسين حى يرزق ويأكل ويشرب والناس تطلب له وتزمر وتهتف بحياته . لأن جميع جيوش العالم لم تستطع أن تقضى عليه . وكان من خطة الرئيس بوش أن يخلص من صدام حسين قبل انتخابات نوفمبر القادم . المعلومات تقول : فى المشمش . فلا يزال جيشه قويا وحرسه الجمهورى أيضا . . والطعام يجىء على شكل اساطيل برية من الأردن ومن تركيا ومن إيران ومن بلاد أخرى .

وكانت أمريكا قد دربت عددامن العراقيين فى دول الخليج على قلب نظام الحكم . فلم ينقلب . وكانت بعض دول الخليج قد مولت هذا المشروع بثلاثين مليونا من الدولارات .

فهل صحيح أن الجيش العراقى قد قضى عليه؟ نحن لا نعرف .

ولكن أمريكا هى التى تقول . وهل صحيح إن الحرس الجمهورى قد صار ترابا . أمريكا هى التى تقول . وقد دخلت أمريكا الحرب وخرجت منها فلم نر صورة واحدة لأعمال الدمار والابادة التى تتحدث عنها صحف العالم . ولكن أمريكا هى التى تقول .

وهل صحيح أن الرئيس بوش كان يريد أو لايزال يريد القضاء على صدام حسين؟ أبدا . . إنه يريد أن يبقى عليه معاديا لإيران وسوريا ومخيفا لدول الخليج وزبونا سخيا للأسلحة من كل مكان . .

ولماذا سكتت أمريكا على المعونات والأغذية وقطع الغيار الى تتدفق على العراق من الأردن ودول أخرى غيرها؟ أمريكا تعلم ذلك . وسوف تساعده على إعادة ضخ البترول ودفع التعويضات وعلى استعادة قوته . . فالطعام فى ايدى الحكومة العراقية . . عائلة صدام حسين هى التى تحكم العراق . فهو الذى يمنح ويمنع ، ويعطى ويأخذ . . وهو الذى تعلقت صورته على الجدران وفى المظاهرات وفى التليفزيون كأن شيئا لم يحدث للعراق!

لا درع الصحراء ولا عاصفة الصحراء . . ومن حق المؤرخين أن يقولوا : أن الرئيس بوش كما أنه أعظم من أدار أزمة ، فهو أعظم ممثل ومنتج ومخرج لفيلم (عاصفة الصحراء) .

(٢)

لقد اختلفت مع السفير الأمريكى فرانك وزنر أثناء حرب الخليج . . وأتى لى بقائد الأسطول السادس ووزير الطيران وتلاقينا على عشاء . ولم اقتنع . ونشرت اللقاءات فى هذا المكان .

وكان من رأيى ـ ولا يزال ـ أن أمريكا دفعت العراق إلى الحرب وإلى الاعتداء على الكويت . . فعندما بعثت بسفيرتها إبريل جلاسبى للقاء صدام كان كلامها واضحا جدا .

قالت : بيننا وبين السعودية اتفاقية أمن مشترك . وليس بيننا وبين الكويت أى اتفاق .

والمعنى : إذا أردت أن تغزو فأمامك الخليج من أوله لاخره . . إلا السعودية . وقرر صدام حسين ارجاء العدوان على السعودية إلى ما بعد .

وكانت هذه هى بداية (النظام الجديد) الذى يبشر به الرئيس بوش فى عهد غياب الاتحاد السوفيتى . ولكن أوروبا لن تغيب ولا اليابان ولا الصين . . وكلها كم سنة وسوف تظهر روسيا قوية بفلوس أمريكا واليابان وألمانيا وعلمائها وخبرائها . . وسوف تكون مشكلة فلسطين مصدر فزع ورعب لكل الدول العربية .

واشترك فى بعض هذه المناقشات د . بطرس غالى . وكان رأيه مخالفا . ولكنه لم يقنعنى أيضا . ونشرت ، ما دار بيننا فى هذا المكان أيضا . .

ووافقت شركات البترول الأمريكية على مد خط بترول إلى خليج العقبة . . ولا الحوجة للسعودية وتركيا وسوريا . وتعهد العراق بأن يعطى الملك حسين خمسة مليارات سنويا . . وتعهدت أمريكا بأنه مهما حدث من خلاف بين الأردن وإسرائيل فإن خط الأنابيب لن يصاب بسوء ـ لأنه من الممتلكات الأمريكية . . وكما تعهد العراق للملك حسين ، تعهد أيضا لليمن وفلسطين والسودان وليبيا والجزائر . . وكل ذلك تعلمه أمريكا علم اليقين . وموافقة عليه . . فأمريكا تلعب على صدام ، وصدام يلعب على الجميع . . وادرك الرئيس صدام ان شقة الخلاف بين أمريكا والعراق ضيقة جدا . ولكن كل دولة لها أسلوب فى اللف والدوران .

ويوم حاولت سفيرة أمريكا فى العراق ان تفتح فمها وتشرح العشرين ألف برقية التى بعثت بها إلى الخارجية ، وضعوا هذه البرقيات فى فمها ، واختاروا لها مكانا فى النسيان تموت فيه . . وقد ماتت!

(٣)

وعرفنا الآن أن الأسلحة الأمريكية التى استخدمت فى حرب الخليج لم تكن هكذا متطورة بل كانت متهورة . . لم تكن دقيقة فكثير من الأهداف لم تصبها . . وفى كثير من الطلعات كان الطيارون ينطلقون على مسئولياتهم . . ولم يحدث ان دمر الطيران الأمريكي والبريطانى والفرنسى كل القواعد . . فالخرائط التى قدمتها الشركات الألمانية والسويسرية إلى أمريكا بالمواقع والمصانع لم تكن دقيقة . بل إنها خرائط من تصميم العراقيين . . ثم ان العراقيين قد غيروا كل المواقع فكانت قواعد الطائرات اشكالا (هيكلية) أصابوها . .

ولا أحد يعرف بالضبط ماذا حدث فى جميع الغارات على العراق ـ إلا هذه الصور القليلة جدا التى يسمح الأمريكان بنشرها . حتى الفرنسيون عندما توسعوا فى النشر ، عادت الدولتان واتفقتا على (التعتيم) الإعلامى نهائيا!

ونشرت الصحف الأمريكية أن الاقمار الصناعية تعد على صدام حسين انفاسه وإنها تستطيع ان تبعث بصورة لماركة القميص الذى يرتديه . . وأنه ميت لا محالة . وأنها تعرف كيف!

فلا عرفت القميص ولا صورة الماركة ولا أقامت للرجل أية جنازة إلا فى خيال المخابرات الأمريكية . فشر أمريكى؟ نعم ويضاف إليه أن احدا لا يريد القضاء على صدام وجيوش صدام وقوة العراق . وإنما فقط تهويش صدام مع الابقاء عليه بأى ثمن . . حتى يظل صدام بعبع الخليج ، وتظل أمريكا القوة التى تحمى هذا

البعبع وتغير وتلون فى شكل الخوف العربى . . فمرة يكون البعبع عربيا ومرة فارسيا ومرة يهوديا . ويظل اخونا الأكبر بوش على كل شئ قديرا .

ولا يستطيع الأمريكان ان يقدموا دليلا واحدا على أنهم حاولوا اختراق استحكامات صدام حسين تحت بغداد وفى مداخل البصرة والموصل . . ولاهم الآن يستطيعون ان يؤكدوا أنهم قضوا تماما على المصانع النووية أو المساعدة لها . .

وسوف نقرأ للحزب المعارض للرئيس بوش حكايات أمتع والذ من مغامرات عاصفة الصحراء . .

(٤)

ولم يثبت حتى الآن ان مقاطعة العراق تامة وعامة . . فلا تزال دول كثيرة أوروبية ولا تينية وعربية تساعد العراق . ولا يزال العراق يملك أموالا كثيرة . . هل باع الذهب؟ هل تلقى فلوسا من بلاد عربية؟! نعم من بلاد عربية! كيف؟ لابد أن تسأل كبير سكان هذا الكوكب : الرئيس بوش . . فما اسم هذه اللعبة؟

اسمها : النظام العالمى الجديد الذى يضع جورباتشوف على رأس الجميع . . ثم يسقطه فى هدوء فلا يصاب باذى . . ثم يأتى بواحد أمريكانى هو الرئيس يلتسين وتعطيه أمريكا ١٦ مليار دولار بعد ان يبوس القدم ويبدى الندم على غلطته فى حق الغنم الرأسماليين الأمريكان والألمان واليابان وكل من يملك عدة مليارات فى أى مكان!

وسوف تعمل أمريكا على عزل إيران ، وليس العراق . . فعزل إيران يوافق عليه كل العرب . . لأنها دولة فارسية ، ولأنها مصدر القلاقل المتطرفة فى العالم العربى .

ثم أن أمريكا لا تخاطر بعدواة العراق التى قصمت وقسمت العرب . . ولم تستطع أمريكا ان تخترع معارضة عراقية . . أو (تفبرك) خصوما لصدام حسين . . إذن فهى لن تكون صديقا للعراق ولكن سوف تكون حليفا حكيما تقوم بتهدئة العراق واصلاح ما فسد بينه وبين الدول العربية . . وسوف تقوم بدور الوسيط بين العراق وبين جميع الدول الأخرى . . وقد حاولت أمريكا اسقاط يلتسين أو التهديد بذلك . حتى استقام واعتدل

وسار فى الخط الأمريكى . . يلبس الجينز ويأكل الهامبورجر ويشرب البوربون ويقول عمال على بطال : أو . . كى!

وسوف تنشغل أمريكا عن العملاق الألمانى الذى بدأ يخيف فرنسا .

ولكن أمريكا تقدر لألمانيا سبع سنوات حتى تنتهى من مشاكلها مع الألمان الشرقيين الذين فى حاجة إلى صياغة اجتماعية وثقافية جديدة . . ولكن الألمان جميعا سوف ينهمكون تماما فى بناء دولتهم الأوروبية العظمى يحاولون تدارك معظم أخطائهم القديمة . .

وسوف تكون عملية السلام أو عمليات السلام فى الشرق الأوسط والمصالحات العامة والقاء الماء البارد على الحرائق العرقية والمذهبية والدينية ، تمهيدا للندم العام والعفو الشامل وتهيئة لظهور زعامات عربية جديدة . . بعد أن اختفت زعامات كثيرة قبل ذلك!

(٥)

آخر تقارير المخابرات الأمريكية على مكتب الرئيس بوش يقول : أنه ليس فى الامكان اسقاط صدام حسين دون مساعدة قوية من أقرب الناس إليه . . وحتى الآن لم نستطع اختراق حاشية صدام .

وكان السيد روبرت جيتس رئيس المخابرات الأمريكية قد زار منطقة الشرق الأوسط وسمع وقال وعرف ، وعاد للرئيس الأمريكي يقول له : كل زعماء المنطقة يريدون القضاء علي صدام حسين . وأنهم مستعدون ان يساهموا ماليا وأدبيا . .

المساعدة المالية قامت بها بعض دول البترول ، والمساعدة الأدبية قامت بها دول أخرى ، وذلك بتدريب قوات مناوئة لصدام حسين على التسلل إلى العراق وتنظيم خطوط المعارضة من أجل اسقاطه . . وفى هذه القوات عناصر من العراق ومن خارجها . وتتولى تدريبها الميدانى المخابرات البريطانية .

وفى هذا التقرير أكد السيد جيتس ان سقوط صدام ممكن . وأنه سوف يكون هدية للرئيس قبل الانتخابات ومن المعروف ان رئيس المخابرات الأمريكية قد وعد بهذه الهدية أكثر من مرة!

وفى ابريل الماضى تلقى الرئيس الأمريكى تقريرا من أجهزة الأمن الأمريكية بأن سقوط صدام بعيد الاحتمال . فالرجل قد استعاد قوته وعاد إلى مجده . . واستقر فى حناجر الناس هتافا . . وفى معداتهم طعاما . . فهو الذى «قهر» كل الجيوش .

ثم جاءت مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل . . أى وقوف العرب مع إسرائيل فى جبهة واحدة ضد صدام حسين . .

أنهم لم يتفقوا على ذلك ، ولكن الصورة التى نراها الآن قد أصبح لها مثل هذا المعنى .

ولكنه ككل المعانى فى الشرق الأوسط ، له دلالة مؤقتة . . فسوف تتغير الكلمات والمعانى والصور والمواقف . وكل اعداء اليوم أصدقاء الغد اعداء بعد غد . . فلا صداقة دائمة ، ولا عداوة دائمة ، ولكن دوخة دائمة!

والمعنى الأهم والأعمق هو أن احدا لم يسىء إلى العرب كما فعل صدام حسين . . أى إن إسرائيل لم تفعل فى الفلسطينيين ما فعله الفلسطينيون فى الكويتيين وما فعله العراقيون فى الجميع!

(٦)

أخيرا . . لقد تقدم شاب من وزارة الخارجية الأمريكية يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٨٩ بمذكرة خطيرة وطلب التحقيق معه فورا . . المذكرة تقول : أنه اكتشف ان مئات ملايين الدولارات التى حصل عليها الرئيس صدام حسين من وزارة الزراعة الأمريكية يستخدمها فى شراء أدوات ومعدات نووية . وحولت وزارة الزراعة هذا الشاب إلى أربعة من كبار موظفيها وكان الحوار بينهم عصبيا استنكروا فيه هذا الهذيان الذى جاء فى مذكرة هذا الشاب!

ولكن الشاب فرانك لوماى لم يسكت . فبعث بمذكرة أخرى إلى جيمس بيكر وزير الخارجية يقول له أنه تأكد لديه ـ من مصادر خاصة جدا ـ ان القروض التى منحتها أمريكا لصدام حسين عن طريق (بنك العمل الإيطالى) فرع اتلانتا قد حولها صدام حسين إلى مصانع بيع الأسلحة وإلى شركات أوروبية تبيع المواد الاشعاعية .

أما مدير البنك الإيطالى فهو رجل زنجى . . ولا يمكن ان تتم هذه العملية دون علم رؤسائه فى أمريكا وإيطاليا . فهم جميعا يعلمون ذلك . . وقد القى القبض على مدير البنك الزنجى ويجرى التحقيق معه .

ولكن حدث شئ عجيب جدا ، فقد تلقى وزير الزراعة الأمريكى توجيهات من وزير الخارجية بيكر بالا يعبا كثيرا بهذه المذكرة وان يعطى العراق قرضا آخر قيمته ٥٠٠ مليون دولار .

وتلقى وزير الزراعة السيد تتر توجيها عاجلا بنقل عدد من موظفى وزارة الزراعة إلى أماكن مختلفة من الوزارة أو من المخابرات أيضا ، وتحويل جزء من المبلغ فورا إلى البنك الإيطالى فى روما وفى دول أوروبية أخرى .

أما هذا الشاب فرانك لوماى ، فطلبوا إليه ان يسكت ، وسكت .

وتطوع للشهادة موظفون آخرون ليقدموا معلومات جديدة عن تصرفات البنك الإيطالى عن خطابات الضمان التى قدمها ـ لأول مرة فى تاريخه ـ إلى العراق تنفيذا لتعليمات الخارجية الأمريكية . .

وآخر ما سمعه أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى من الحزب الديمقراطى ان المدير الزنجى أعلن صراحة : كل ما فعلته ليس سرا . فقد دفع العراق مبالغ كبيرة لمن يعنيهم الأمر!

(٧)

تلجأ الوزارات فى أمريكا إلى المعاهد العلمية المتخصصة لتساعدها على حل مشاكلها الصعبة ، مقابل مبلغ من المال . وقد لجأت الخارجية الأمريكية إلى (معهد بروكنجز) الشهير أن يحل لها مشكلة الشرق الأوسط ، فوضع المعهد إطار إتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل . وأذكر أننى عثرت على هذا الإطار وترجمته كاملا ونشرته فى مجلة (أكتوبر) .

وتصادف أن ظهرت المجلة يوم سفر الرئيس السادات إلى أمريكا . ففوجئت بالمشير محمد عبد الغنى الجمسى يصعد الطائرة ويطلب منى ان ألفت نظر الرئيس السادات إلى ذلك . وكانت مفاجأة .

ولم تخرج الاتفاقية بين مصر وإسرائيل وأمريكا عن هذا الإطار الذى شارك فى إعداده برزنسكى مستشار الأمن القومى للرئيس كارتر .

وقد حدث نفس الشئ بالتمام والكمال قبل حرب الخليج . فقد طلب الرئيس بوش من أحد المعاهد المتخصصة أن يبحث له موضوعا هاما جدا . الموضوع هو : ماذا تفعله أمريكا إذا إعتدت دولة عربية على أخرى . هذا الموضوع فرغ منه المعهد السياسى قبل حرب الخليج بسنتين وأعطوه للجنرال شفارتسكوف .

وتدرب عليه تماما . . وادخل عدة تعديلات على المشروع ، ولكن وزارة الدفاع الأمريكية رفضته تماما ثم أن الخطة العسكرية

الأمريكية قد أخطأت عدة أخطاء قاتلة . . ولكن لأن الحرب من أولها إلى آخرها تمت فى ضباب ، فلا أحد يعرف بالضبط ماذا حدث . . ولا كيف هاجمت الطائرات أهدافا غير عسكرية وضربت هياكل خشبية مئات المرات . . ولا كيف أخطأت صواريخ باتريوت . . ولا كيف اسقطت صواريخ عراقية مليئة بالزلط .

وقد أجرى الرئيس بوش عمليات تجميلية على الجانب السياسى والإعلامى لحرب الخليج ـ وهو الرجل المسئول وحده عن تعطيل تسليم الرهائن الأمريكان حتى الساعة الأخيرة من ولاية الرئيس كارتر . . وكان هدفه ان يتم تسليمهم فى الساعات الأولى من ولاية الرئيس ريجان!

وهو المسئول وحده عن إعلان سقوط طائرة أمريكية مدنية فى المياه الدولية للخليج ـ والحقيقة أنها كانت فى المياه الايرانية ولكنه لم يشأ أن يدخل معركة مع إيران من أجل ٢٩٠ راكبا مدنيا!

تسجيلات نادرة !

قرأت فى مقالكم بجريدة الأهرام أخيرا ما تشرفتم بكتابته عن تسجيلات تاريخ مصر الحديث ورأيكم فى عرضه على الجمهور . واتشرف بافادتكم بأن لعمى الفنان حسن مراد مدير الجريدة السينمائية «جريدة مصر الناطقة» دورا بارزا وكبيرا فى تسجيل أحداث مصر من عهد الملك فؤاد والملك فاروق والرئيس الراحل جمال عبد الناصر حيث كان يقوم بالتصوير ـ مسجلا لاستوديو مصر فى الجريدة السينمائية التى كان يديرها ـ أهم أحداث مصر قديما وحديثا . . واعتقد ان هذه الشرائط موجودة لدى استوديو مصر وياحبذا لو عرضت فى السينما فى عروض خاصة ـ وهى فى الوقت نفسه مناسبة لتخليد ذكرى عمى المصور الرائد الذى تتلمذ عليه كثيرون من مصورى السينما . . ومات شهيدا فى ١٣ يونيه ١٩٧٠ ولا تذكره الدولة بشىء من التقدير وفاء وعرفانا مع أنها تتذكر غيره فى مناسبات فنية كثيرة .

رأيت ان أكتب هذه الرسالة لكم لتكون تحت بصركم لعلها تفيد فى الموضوع الهام الذى كتبتم فيه . مستشار على مراد رئيس محكمة الاستئناف/ الاسكندرية وهذا كنز انفتح للتليفزيون والسينما وهيئة الاستعلامات ووزارة الثقافة وشركات الإنتاج السينمائى التى تبيعه فى مصر والعالم كله .

فلا أحد ينكر النشاط الهائل الذى كان للمصور الكبير حسن مراد . . وكان الذى يصوره تعرضه كل دور السينما ـ يوم كانت دور السينما تعرض «جريدة مصر المصورة» فى عصر ما قبل التليفزيون . .

ومن المؤكد ان أول من يبادر بالوقوف والدخول والشراء والبيع بعد ذلك هو المنتج المعروف جمال الليثى . . فليكن المهم ألا تضيع هذه الفرصة . . وقبل ان تسرع الشبكات العالمية فتحصل على كنوز حسن مراد وتعرضها فى كل الدنيا وفى جميع المناسبات .

كما ان هناك عددا كبيرا من أثرياء العرب يحرصون على اقتناء هذه التسجيلات النادرة .

وبعد وفاة أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ومحمد عبد الوهاب عرفنا ان هناك تسجيلات نادرة لأغنيات وجلسات وألحان لم نعرف عنها شيئا وهى من المقتنيات الخاصة . . وسوف يسبقوننا إلى شراء تسجيلات حسن مراد النادرة . . فإذا حدث فأنهم يحتفظون بها لجلساتهم الخاصة ولن يراها أحد بعد ذلك ، حتى لو أراد أن يعرف ماذا حدث فى مصر فى أربعينيات وخمسينيات هذا القرن .



(١)

ونحن نتحدث ونتناقش وكان التاريخ الثقيل قد تساقط احجارا فوقنا واطلق دخانا حولنا . . وكيف يظهر من هذا المكان المجهول ومن هذا البيت الذى لا معالم له ومن أبوين لا مزايا لهما هذا العبقرى الشرير هتلر . . ينتقم لابويه ولنفسه وللشعب الألمانى من الدنيا كلها . . كيف جاء؟ وكيف خرج؟ وما هى مكونات ومقومات العظمة والابهة والعبقرية العسكرية والدمار الدموى والوحشية أيضا؟

وكان يجلس إلى جوارنا رجل أسمر يتابعنا كأنه يفهم ما نقوله . . وهو بالفعل يفهم ما نقوله أنه الصيدلى المصرى النمساوى د محمد حلمى ابن أخى المرحوم حسن حلمى رئيس نادى الزمالك . . ومعه زوجته الألمانية التى ولدت فى هذه المدينة وعاشت فيها ست سنوات مثل هتلر تماما ، ثم رجعت إلى المانيا . . وحدثنا عن أهم مشاكل المدينة . . فالمدينة فيها استفتاء عام عن الشارع الذى نجلس فيه . . فهناك رأى بأن يكون نهر الشارع فى الوسط والمطاعم على الجانبين وليس على جانب واحد . . ولكن هناك اعتراضا على ذلك : فأين يلعب الأطفال إذا تحركت

السيارات فى هذا الشارع . . قال لنا د . محمد حلمى : أن عددا كبيرا من الناس يجيئون إليه يسألون هكذا : نحن لسنا نازيين ولا مؤيدين للنازية الجديدة . ولكن نريد ان نعرف أين البيت الذى ولد فيه هتلر؟

وقال لنا إن أكثر الكتب انتشارا هى (كتالوج مدينة براوناو) ـ قديما وحديثا . . والبائع يعرف السبب الذى من أجله يشترى المئات هذا الكتاب الضخم ولكن احدا لا يجرؤ أن يجاهر بهذا السبب . . والعيون تتسابق إلى صور البيوت . . ثم إلى هذا البيت الذى ولد وعاش طفولته فيه مع أبويه .

وعند مدخل مدينة براوناو الواقعة على نهر (إن) وجدت رجلا جالسا على قطعة حجرية وله ملامح هتلر تماما . فوقفت أمامه مندهشا . فقال الرجل ضاحكا أعرف دهشتك . . إن هذه المدينة تحرص على وجودى . . فالناس عندما يذهبون إلى بيت هتلر ولا يجدونه يسارعون إلى هنا ليرونى ويضحكون ويذهبون فى صمت دون ان يقولوا شيئا . فأنا أعرف وهم يعرفون السبب!

(٢)

أما الحجر الذى وضعوه أمام بيت هتلر فمكتوب عليه : ان آلاف الضحايا فى معسكرات الاعتقال يشيدون بالديمقراطية والحرية ويمقتون الفاشية!

أى يمقتون الفاشية التى يمثلها هتلر ، والتى دفعته إلى إقامة معسكرات الاعتقال وغرف الغاز لخصومه السياسيين من اليهود والمسيحيين والشيوعيين . . وأما البيت ، فهو البيت الوحد الذى لم تمسه فرشاة نقاش . . فهو باهت الألوان . . وبذلك تميز عن كل البيوت على جانبيه . . ثم أنه البيت رقم ١٥ فى الشارع الرئيسى . . وقد تحول البيت إلى مكتبة عامة . . ثم جعلوه مقرا للجنة مساعدة الأطفال . .

وكان هؤلاء الناس جالسون فى المقاهى والمطاعم قد جاءوا من المانيا عبر الجسر الذى يفصل بين هذه المدينة ومدينة زمباخ الألمانية ، ليروا البيت الذى ولد فيه هتلر . . جاءوا فى صمت ليروا ويتحدثوا همسا . . فليس فى هذه المدينة شئ له قيمة أو له تاريخ إلا هذا البيت . . والا أحد سكان هذا البيت الذى حكم الدنيا وهدمها على جثث عشرات الملايين وعمدة المدينة يريد ان يقوم بنشاط ترفيهى كبير . فالناس يجيئون . ولا بد ان يجيئوا . ولذلك يجب أن تواجههم المدينة باستعداد أكبر فى المطاعم والمقاهى . . والكتب التاريخية والصور .

ومن بين هذه الكتب مجلدان كبيران . الجزء الأول عن المدينة قديما وينتهى الجزء الأول بموكب لهتلر داخلا هذه المدينة . وقد

تدلت اللافتات من بيت هتلر تقول : نحن نشكر أدولف هتلر . . والجزء الثانى عن التعديلات التى أدخلت على المدينة . . وحياة جميع العمد الذين حكموها فى مئات السنين .

ولكن المهم فى كل هذه المدينة هو هذا البيت . هذه حقيقة خفية . . لا يقولها أحد . . ولكنها هى الدافع القوى لأن يجىء الألوف من النمسا ، ولأن يعبر الجسر من ألمانيا الوف آخرون!

وتراهم يتمشون فى الشارع الرئيسى ويتوقفون عند الواجهات الزجاجية . . ثم يصطدمون بالحجر أمام بيت هتلر ، كأنهم لا يقصدون ذلك . . ثم ينظرون إلى البيت ويعودون يشربون ويأكلون . . أما التعليق على ذلك ففى بيوتهم!

(٣)

جلست مع د . حاتم ابوراس والسيدة زوجته الإيطالية النمساوية . وتحيرنا كيف نسأل الناس . . لقد شعرنا بالقلق والخوف فى نفس الوقت . فالشعب خائف من القوانين الجديدة . وفى نفس الوقت لا يستطيع ان ينكر التاريخ . . فمن هنا خرج هتلر فى السادسة من عمره وذهب إلى فيينا وتنقل بين فيينا وألمانيا .

وحاول ان يدخل مدرسة الفنون الجميلة ، فرفضوه لأن مستواه الفنى كان ضعيفا . فانتقل إلى السياسة التى هى مجاله الابداعى وإلى العسكرية وإلى الاقتصاد والصناعة حتى كان الزعيم المقدس للألمان . . وكان ما نعرفه جميعا . والآن هناك مد جرمانى . فالألمان أصبحوا أقوى وأعظم ، وعاد إليهم اعتزازهم بماضيهم وحاضرهم أيضا . وكثيرون لم يعودوا يشعرون بحرج من الحديث عن هتلر والنازية التى سوف تنقذ المانيا من الدخلاء وسوف تنتقم من الذين اهانوها وعذبوها وعادوا إلى احتلالها اقتصاديا من جديد .

والدولة الألمانية تقاوم النزعات الوطنية المتطرفة المتعصبة . . فكل ويلات المانيا جاءت من هذا التعصب للشعوب الجرمانية والجنس الارى! وإن الألمانى هو «السوبر مان» كما قال الفيلسوف نيتشه وكما قال الفيلسوف النازى روزنبرج كتابه «اسطورة القرن العشرين» .

وقد اسفر انهيار الاتحاد السوفيتى عن أنه كان اتحادا بالقوة ـ بالحديد والنار ـ بالشيوعية التى هى الحديد الساخن والبارد . . فلما انهار الاتحاد السوفيتى عادت الشعوب إلى جوهرها واستقلالها

وحريتها وانفصالها عن الاتحاد السوفيتى الذى قام على جثث الملايين سبعين عاما من السجن والتشريد وأجهاض النزعات الوطنية والعقائد الدينية .

ووقعنا فى حيرة ـ فنحن لا نريد ان نحرج أحدا . . أما نحن فلا يهمنها أن نسأل عن البيت الذى ولد فيه هتلر . .

ووجدنا سيدة يبدو من شعرها الاسود أنها ليست نمساوية . . فاشارت بذراعها الطويل إلى الشارع . . ولم تحدد المكان . ولا ظهر عليها أى ضيق . فهى لا تريد ان تبدو خائفة ولا تريد ان تبدو سعيدة بذلك .

وإنما نحن سألناها وهى اجابت على قدر السؤال . . ولم نجد بيتا واحدا عليه لافتة تقول . هنا ولد ادولف هتلر .

وقال لنا أحد المارة : هناك سوف تجد أمام البيت حجرا للذين احترقوا فى معسكرات الاعتقال!

(٤)

ذهبت اتفرج على مدينة صغيرة معروفة فى الدينا ولا يجرؤ احد أن يذكر اسمها إلا همسا . وإذا اشار إليها فلا يكون واضحا . المدينة الصغيرة اسمها براوناو . . وهى المدينة التى ولد فيها هتلر سنة ١٨٨٩ (نفس السنة التى ولد فيها العقاد وطه حسين والمازنى وعبد الرحمن الرافعى وايليا أبوماضى ونهرو وشارلى شابلن) . . تبعد عن العاصمة حوالى ٢٧٠ كيلو . . الطريق حرير طبعا والغابات خضراء . . والعلامات تملأ الأرض يمينا وشمالا . . وكلما اقتربنامن المدينة ضاقت الطرق . . واحسسنا بأننا فى الريف . . ولكنه ريف النمسا . . فالبيوت صغيرة ونظيفة . . ولكننا لم نر احدا فى الحقول : لا الناس ولا الابقار . . ولما اقتربنا من المدينة وجدنا المصانع والمداخن والحظائر . . والعلامات تقول أننا على مدى كيلو مترات من المدينة . . على مدى امتار . . وهذه هى مدينة براوناو . . وكنا نتناقش فى القانون الجديد الذى صدر فى النمسا يحرم على أى إنسان ان يتحدث عن النازية . . مزاياها . . أو يتحدث عن الذى فعله هتلر باليهود الذين عادوا يسيطرون على الاقتصاد النمساوى كله . . والذين قدموا للنمسا : عالم النفس فرويد والادباء تسفايج وكافكا وفرفل وعشرات الفنانين والاطباء وأصحاب الملايين .

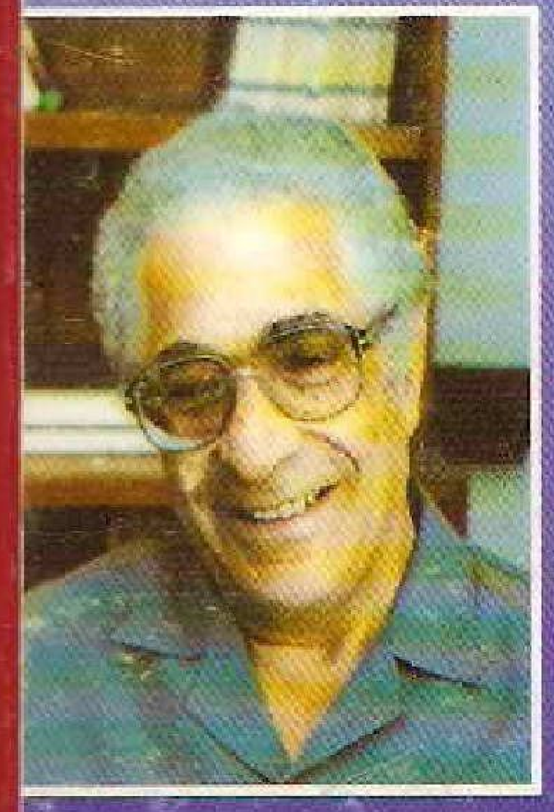
وكانت الصهيونية العالمية قد اتهمت الرئيس فالدهايم بأنه نازى وأنه ساعد على قتل اليهود فى يوجوسلافيا . . ولكن اللجان الدولية المحايدة اثبتت ان سجله العسكرى نظيف وأنه لم يكن نازيا ولا قاتلا!

ولابد ان يشعر أى نمساوى بالفزع إذا سألناه عن البيت الذى ولد فيه هتلر . . ولذلك ظللت أمشى فى الشارع الرئيسى للمدينة . . وقد تناثرت المقاهى على الجانبين . . والمدينة قديمة . . وفى منتصفها برج مرتفع وليس من الناس أحد اسمه هتلر . . ولاأحد له ملامحه . . عيناه وشاربه وشعره المتدلى على جبينه . . ولا أحد يشعر بأن هذه المدينة قد انجبت أبنا غير شرعى من أب كان يعمل فى السكة الحديد وأم كانت تعمل خادمة . . أو كانت لا تعمل وإنما الأب والأم فقيران . . ويقال : كان لهتلر أخ ويقال : أخت ويقال إنه أحب بنت أخته ويقال قتلها . . واساطير أخرى ملأوا بها حياة الزعيم الألمانى . .

وبين هذه المدينة الصغيرة وبين المانيا جسر على نهر (إن) وكثير من أبناء هذه المدينة يعيشون فى ألمانيا . . ويوم ولد هتلر لم يكن هناك فارق بين النمسا والمانيا ـ ولا حتى اليوم!

الفهـــرس





أنيس منصو

هذا الكتاب

لا تسأل طبيباً ولا عالماً ولا باحثاً.. إن كان حقاً أنك لم تعد تشكو من صداع في الرأس أو تشنج في الأمعاء أو ثقل في المعدة.. مادام هذا شعورك فكن سعيداً..

لا تسأل أحداً إن كنت تنهض من نومك بعد ساعة فتحس كأنك نمت أربعاً وعشرين ساعة.. لا تحسد نفسك إن وجدت نوراً قد فجر من جنبك ومن عينيك..

لا تسأل أحداً إن وجدت أنك لا تمشي على الأرض وإنما فوقها..

لا تسأل أحداً إن كان ثوبك الأبيض ليس إلا ريشاً تطير به.. إن كان إلا مظلة واقية هبطت من السماء إلى ما فوق الأرض.

لا تسأل أحداً إن كنت لا تتعب من الجلوس على الرخام وتسجد على التراب بين عدد من الأحذية والشباشب، فلا تشعر بتعب ولا تضيق برائحة فذلك فضل الله عليك..

إنك لا تتعب إذا أكلت وإذا شربت وإذا ركعت
سجدت وإذا نمت وحتى إذا نسيت أن تف
لرأسك مكاناً بين الجزم ونسيت أن تنفض الت
عن جبهتك لا تحسد نفسك على هذه النعمة ف
في حالة من الاستشفاء.. من العلاج الروحي
الصفاء من النـ
طريقك الطويـ
الله..



